

سلسلة  
آفاق  
عالمية  
76



المدينة العامة لقصور الثقافة

[/http://arabicivilization2.blogspot.com](http://arabicivilization2.blogspot.com)

Amly

# العجريّة

ثريانتس

ترجمة: د. علي البمبي



# الفجرية

تأليف: ثريانتس

ترجمة: د. علي البمبي

وزارة الثقافة



سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

### • هيئة التحرير •

رئيس التحرير  
طلعت الشايب  
مدير التحرير  
تفريد كامل إمام  
سكرتير التحرير  
وليد محمد عبد العزيز

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.  
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة. أو بالإشارة إلى المصدر.

## سلسلة آفاق عالمية

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

أمين عام النشر

سعد عبد الرحمن

الإشراف العام

جمال العسكري

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

• الفجرية

• ترجمة: د. على البهس

• الطبعة الأولى:

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة - 2009 م

44ص - 13,5 x 19,5 سم

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• المراجعة اللغوية: سوزان عبد العال

• رقم الإيداع: 2624 / 2009

• الترقيم الدولي: 2-081-479-978-978

• المرسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالى: 16 شارع أمين

سامى - قصر العيني

القاهرة - رقم بريدى 11561

ت، 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت، 23904096

## الفجریة

---



## تقديم المترجم

---





على الرغم من أن «ثرباننس» يتربع فوق عرض الأدب الأسباني بلا منازع، يعتبر أحد القمم الشامخة في الآداب العالمية، ولا يختلف اثنان على عبقريته الفذة في فن القص إلا أنه يكاد يكون مجهولاً في أدبنا العربي رغم مرور زهاء أربعة قرون على وفاته.. لقد كانت ترجمة الدكتور عبد العزيز الأهواني للجزء الأول من «دون كيخوته» (المنشورة منذ حوالي خمسين عاماً في سلسلة «الألف كتاب» الرائدة) هي المحاولة الأولى لتعريف القارئ العربي بهذا الكاتب العملاق، وبعد ترجمة الأهواني الرائعة جفت الأقلام وطويت الصحف، إذ لم يجرؤ مغامر آخر على سبر أغوار عالم ثرباننس الخصب، المحفوف بالعقبات والأخطار، للتنقيب عن كنوزه واستخراج نفائسه.. ونقول «مغامراً» لأن هذا العالم تكتنفه صعوبات جمة حار في تفسيرها الشراح ولم يهتدوا إلى مغزى الكثير منها.

ولاتفق هذه الصعوبات عند حد اختلاف عصر المؤلف أو المناخ الثقافي والسياسى والاجتماعى الذى عاش فيه، بل تمتد لتشمل أسلوبه المعقد وطبيعة أداة التعبير المستخدمة آنذاك، فلقد شهدت اللغة الأسبانية تطوراً ملموساً خلال تلك الحقبة الطويلة التى طوى فيها التسيان عدداً لا بأس به من الألفاظ والمصطلحات، وتغيرت فيها مدلولات عدد آخر لا يحصى من المفردات، ناهيك عن التراكم اللغوية وشكل الكتابة والقواعد التى تحكم بناء الجمل، هذا بالإضافة إلى الأسلوب المتفرد للكاتب وتشعبه بالثقافة اليونانية واللاتينية، وإلى استخدامه للكثير من الاصطلاحات الكنسية والأحاجى اللغوية والتعبير المجازية... إلخ.

ومن هنا يتبين أن اقتحام مثل هذه النصوص - لاسيما إذا كانت لعبقرى مثل ثريانتس - أشبه بتسلق جبل وعر غامض، حاد وسامق ، تحتاج كل خطوة فيه إلى الاستكشاف المستمر والحرص الدائم واليقظة التامة، لأن زلة واحدة للقدم تعنى السقوط من حالق.. ولعلنا بهذه الكلمات القصار نكون قد أشرنا - ولو من بعيد - إلى سر انصراف المترجمين العرب عن ثريانتس رغم أن الأسباب التى تجعله جديراً بالترجمة تفوق الحصر، ومنها:

أن كتاباته تضم ألفاظاً عربية الأصل وأحاديث عن المسلمين ودينهم وبعض عاداتهم، وأنه ينطق بأطاله بأمثال عامية وحكم ومواعظ ليست بعيدة عن تراثنا بل إن لتراثنا أثراً كبيراً فى إذاعتها بين أهل أسبانيا، ولقدرة أعماله على الإيحاء وإثارة عواطف قرائها

على اختلاف عصورهم وأوطانهم وحظوظهم من الثقافة، ولأن أعماله تحوى بين جنببيها فزعة إنسانية تجعلها تتجاوز حدود الوطن الأسباني وحدود عصرها لتصبح مشاعاً بين البشر جميعاً فى كل عصر ومصر، ولأننا نستطيع من خلال كتاباته(التي تتسم بالواقعية المضخمة بالمثالية) التعرف على قسط كبير من ملامح الحضارة الغربية فى ذلك الحين (والإمبراطورية الأسبانية كانت الممثل الوحيد لها آنذاك) وعلى العلاقة الجدلية - أو التضادية، بمعنى أصح - بينها وبين الشرق الإسلامى ممثلاً فى الإمبراطورية العثمانة .. الخ.

### المؤلف وعصره:

إذا أردنا الاقتراب من عالم ثريانتس الأدبى وفهم سر طيران إبداعه بجناحي الواقعية والمثالية فلا مفر من التعرف على حياته وعلى العصر الذى كان يعيش فيه، لأن بين ثلاثتهم ارتباطاً وثيقاً. إن حياة ثريانتس تشبه إلى حد كبير حياة بطله «دون كيخوته» مثيرة للأسى ومفعمة بالنوازل والحادثات، تطلق فى سماء الفروسية المترعة بالمثاليات، لكنها سرعان ما تصطدم بأرض الواقع المخيبة للأمال.

ولد ميغيل دى ثريانتس سابدرا فى قلعة هنارس أو قلعة النهر Alcalá de Henares عام ١٥٤٧م، وكان الابن الرابع من سبعة أبناء لأسرة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى، كان أبوه «رودريجو ثريانتس» طبيباً جراحاً، وكان رزقه من مهنته ضئيلاً بحيث اضطره إلى الرحيل من بلد إلى بلد سعياً وراء القوت بما لم يتح لابنه

استقراراً يمكنه من الدراسة المنتظمة ، وإنما هي فترات متفاوتة قضاها في أماكن يختلف فيها بين بلد الوليد وبين الآباء اليسوعيين في أشبيلية أو تحت إشراف أستاذ له في مدريد أو خلال فترة قصيرة في جامعة شلمنقة.

وفى سنة ١٥٦٩ (أى وهو فى الثانية والعشرين من العمر) بدأت - مع رحيله فى حاشية الكاردينال «خوليو أكوأبيا» إلى إيطاليا - صفحة جديدة من حياته مترعة بالبطولات ومعبقة بالمثاليات، التحق بعد وصوله إلى إيطاليا بالجنديّة، وهى مهنة كان لها شرف وشأن عظيمان فى عصره، وفى سنة ١٥٧١ اشترك - من على ظهر سفينة لاماركيسا - فى معركة «ليانتو» الشهيرة ضد الأسطول التركى الذى لاقى هزيمة منكرة على يد نظيره الأسباني . وقد جرح فى تلك المعركة وأصيبت ذراعه اليسرى بحيث تعطلت عن الحركة - وإن لم تقطع - طوال حياته بعدها، وكان دائم الفخر بهذه الإصابة ويعتبرها وساماً رفيعاً وشرفاً عظيماً فى سبيل مجد أسبانيا والمسيحية ، ويقال إنه كان مريضاً وبه حمى ومع ذلك أبى إلا المشاركة فى القتال طلباً للموت فى سبيل الدين والوطن، لكن هذه الإصابة لم تقعه عن المشاركة فى حملات حربية أخرى فى نفاارين وتونس وباليرمو.

عاد بعد ذلك إلى إيطاليا حيث أتقن لغتها واطّلع على كبار كتابها ونشع بأجواء نهضتها وزار مدنها الرئيسية (وقد وصف هذه المدن وصفاً دقيقاً فى العديد من قصص المجموعة التى بين أيدينا) وبعد زيارته للمدن الإيطالية الهامة أبحر من نابولى (عام ١٥٧٥) عائداً

إلى أسبانيا، وكان يحمل توصيات مكتوبة من شخصيات أسبانية كبيرة فى إيطاليا يأمل من ورائها أن يلقى فى بلاده خيراً عميماً، ولكن القراصنة من الأتراك هاجموا سفينته فى عرض البحر وأسروه - هو ومن معه - ثم حملوهم إلى الجزائر، وهكذا أصبحت التوصيات التى كان يحملها مصدر شر له إذ غالى فى فديته أسروه، ولما لم يتمكن أهله الفقراء من افتدائه ظل فى أسرهِ أو استرقاقه لمدة خمس سنوات عانى فيها الكثير من الأهوال وتعرض للموت نتيجة لمحاولته الهرب أربع مرات واعترافه فى كل مرة بالتخطيط للفرار، متحملاً بذلك المسئولية عن زملائه. وقبل قليل من ترحيله إلى القسطنطينية افتدته إحدى الجمعيات الخيرية المسيحية - Los Padres Trinitari OS - ليعود إلى وطنه وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر.

وإلى هنا تنتهى المرحلة البطولية من حياته لتبدأ أخرى مليئة بالأشواق إذ لم يفده الماضى المشرف بشيء، ولم تفلح التوصيات ولا الإصابات الظاهرة والخفية، وما لبث أن وجد نفسه متعطلاً خالياً من العمل فقيراً، يطرق الأبواب فلا تفتح له، ولم يبق أمامه إلا القلم يريد أن يعيش منه، لكن شق القلم - كما يقول كُتابنا القديم - أضيق من أن يسمح بالثراء.

وبعد فك إيساره استقر فى مدريد ثم تزوج (عام ١٥٨٤) بشابة من إحدى القرى تصغره بثمانية عشر عاماً كانت بمثابة هم جديد يضاف إلى همومه الثقال، وفى العام التالى لزوجته نشر باكورة إبداعه القصصى «لجالاتيا» لكنها لم تلق رواجاً، ولم يظفر من

ورائها بالعائد المادى المنشود... وبعد سعى طويل، وجد وظيفة خاملة بأجر زهيد تتمثل فى جمع القمح والأقوات للأسطول الأسباني، وقد اقتضت مهام وظيفته (محصولاً) التنقل بين مدن الأندلس المختلفة، كما تسببت فى دخوله سجن أشبيلية مرتين لأخطاء نسبت إليه فى تأديته لعمله وإن كان قد تبين فيما بعد براءته منها، وبعد إعفائه من هذه الوظيفة الكدء رحل فى سنة ١٦٠٣ إلى بلد الوليد (وكانت العاصمة وقتذاك) ، وهناك لاحقه السجن للمرة الثالثة للعثور على رجل مقتول أمام مسكنه ، لكنه لم يستمر فى الحبس طويلاً لثبوت براءته مما دار حوله من شبهات، ومن بلد الوليد شد الرحال مرة أخرى إلى مدريد ليقضى فيها بقية حياته وينشر الجزء الأول من «دون كيخوته» (عام ١٦٠٥) ، ويقال إنه حاول السفر مرة ثانية إلى إيطاليا بصحبة «كونت دى ليموس» لكن رغبته لم تتحقق، كما باع بالفشل أيضاً محاولة أخرى له للذهاب إلى العالم الجديد (وقد أصابه رفض السلطات الأسبانية لسفره إلى العالم الجديد - والذى كان مباحاً للبرِّ والفاجر - بحزن عميق وأسى عميم).

وفى السنوات الباقية من عمره توالى أعماله الإبداعية ما بين شعر وقصة ومسرح. ورغم الشهرة العريضة التى نالها بعد صدور الجزء الأول من «دون كيخوته» فإن آلامه لم تنته بسبب المتاعب المادية والعائلية ولحسد أبناء مهنته وكيدهم له، وحسبنا أن نعلم أن واحداً من هؤلاء المعاصرين له قد أخرج قصة جعلها الجزء الثانى من «دون كيخوته» وصاحب الجزء الأول مازال حيا يرزق، وقد أدى

هذا الاجتراء الفاجر إلى إسراع كاتبنا بإخراج الجزء الثانى الحقيقى.

وإذا قارنا حياة ثريانتس بحياة المشاهير من معاصريه (أمثال: كيبيدو، ولوبى دى بيجا، وكالدرون دى لابركا) يملكنا الأسى لما عاناه من بؤس وحرمان فى سننى نضجه ، ولما تعرض له من أهوال ومحن فى ريعان شبابه، صحيح أنه اكتسب شهرة فى أخريات حياته، لكنها لم تخفف من عوزة، ولم تضعه فى المكانة التى يستحقها بين أدباء عصره، وحسبنا فى هذا المقام الإشارة إلى سخرية «لوبى دى بيجا» القاسية منه حين قال: لا يوجد بين الشعراء من هو أسوأ من ثريانتس ، ولا من بين الحمقى أحقق ممن يثنى على «دون كيخوته» أو إلى هذا التشفى الواضح الذى ورد على لسان آخر: إذا كان ثريانتس يكتب من أجل كسب لقمة العيش فالأفضل أن يستمر فقيراً هكذا.

ورغم هذه السخریات والحظ المعاند لم تلتن قناة كاتبنا ولم يخفت وهج إبداعه (يفضل روحه الوثابة وثقته فى موهبته واعتداده الشديدي بالنفس وتفاؤله) وظل يكتب حتى وافته المنية عام ١٦٦٦م.

لقد عابه معاصروه لأنه لم يحصل على شهادة دراسية، ومع هذا فإن الدراسة المتأنية لأعماله تميط اللثام عن عمق ثقافته وقراءته الواعية للتراث الأسبانى وإنتاج مؤلف عصر النهضة الكبار، كما تبرهن على مطابقة «أيدىولوجيته» للروح السائدة فى القرن السادس عشر، وخير دليل على ما تقدم إشاراتة المستمرة إلى كل من أرسطو

وأفلاطون وهوراسيو و«أيورستو» و«ليون إيبيريو» فضلاً عن الكثيرين من الكتاب الأسبان، وعلى هذا فإن خلو سيرته الذاتية من شهادة مدرسية لا يعيبه فى شيء لأنه - كما يقول المؤرخ والناقد الفذ «أميريكو كاسترو» - : لم يكن مثل جاليليو أو ديكارت بل عبقرى من معدن آخر، استطاع - بوعى وإدراك عميقين - هضم المكونات الأساسية لعصره واتخاذها متكاً لصوغ أعماله الإبداعية».

وإذا كانت حياة ثربانتس موزعة بين شباب مفعم بالبطولة والمثاليات وبين نضج وهم مترعين بالانتكاسات وخيبة الآمال فإن القرن السادس عشر الذى قضى فيه جلُّ عمره قد بدأ بجملة انتصارات وانتهى بعدة هزائم وانكسارات.

لقد كانت أسبانيا حتى أواخر القرن الخامس عشر تتألف من ممالك متجاورة متنافرة، وسادها التفرق السياسى والدينى واللغوى ما يقرب من ثمانية قرون(وهى فترة الوجود العربى على أرضها) وفى الربع الأخير من هذا القرن شهدت أسبانيا جملة من الأحداث غيرت وجهها التاريخى:

ففى عام ١٤٧٤م ارتبطت مملكتنا «رغون» Aragón وقشتالة Castilla بالزواج الذى انعقد بين ملك الأولى (فرناندو) وبين ملكة الثانية (إيسابيل) ، وهما اللذان عرفا بالملكين الكاثوليكين، قامت المملكتان بعد هذه الوحدة بالزحف على الجنوب والاستيلاء على آخر المعاقل العربية فى أسبانيا (مملكة غرناطة) عام ١٤٩٢، كما شاعت الأقدار أن تصل فى العام نفسه السفن الأسبانية بقيادة «كريستوفر



كولبس» (أو «كريستوبال كولون» ، كما يعرف فى الأسبانية) إلى الدنيا الجديدة، ثم تعود حاملة نبأ الاكتشاف العظيم الذى هز البلاد هزاً، وكان سقوط غرناطة واكتشاف العالم الجديد بمثابة حدثين خطيرين جعلوا أسبانيا تشرئب بعنقها للقيام بدور تاريخى لم تفكر فيه من قبل، وفى ذلك العام أيضاً طردت أسبانيا اليهود من أرضها بعد أن شاركوا بأموالهم فى فتح غرناطة، فاكتملت بذلك وحدتها الدينية، إلا قلة تكفلت بها محاكم التفتيش، واكتملت لها معظم وحدتها السياسية إلا مملكة «نبرة» Navarra التى ستتنصوى تحت لواء الوحدة بعد قليل (فى عام ١٥١٢) ، ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى أصبح العلم الأسبانى يرفرف على أجزاء من العالم الجديد وعلى جزر فى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى وعلى مدن إيطالية.

ولما دخل القرن السادس عشر كانت الجيوش الأسبانية تغزو المغرب ذاته، حيث دخلت وهران واحتلت مواقع فى طرابلس ومراكش، وكانت هذه الحملات تحت قيادة رجل من أكبر من عرفتهم أسبانيا من رجال الدين فى ذلك العصر (وهو أيضاً رائد الحركة الإنسانية فيها) ونعنى به: الكاردينال «ثيسنيروس» Cisneros ، وفى هذا رمز صريح الدلالة على طابع القرن كله: الحرب والدين أو السيف والصليب.

وبعد الملكين الكاثوليكين اعتلى عرش أسبانيا (من ١٥١٧ إلى ١٥٥٦) ملك صار المثل الأعلى لهاتين القوتين، فأصبح إمبراطوراً

يجمع تحت حكمه أسبانيا والعالم الجديد وألمانيا والنمسا والبلاد  
الواطئة وبرجونيا وصقلية وسيردينيا وأجزاء كبيرة من إيطاليا،  
وأصبح يقاوم التوسع العثماني فى أوروبا ويشن الغارات على تونس  
والمغرب الإسلامى كله ويثبت أقدامه فيه، ويحارب المذهب المسيحى  
الجديد البروتستانتية التى روج لها «إيراسمو» Erasmo بكتاباتة  
وانتقاداته الحادة للكنيسة الرسمية ولرجال الإكليروس)... نعم  
أصبح كارلوس الخامس يحمل أضخم تاج فى أوروبا بل وفى العالم  
بأسره ، وغدت إمبراطوريته مترامية الأطراف لا تغيب عنها  
الشمس، وكان لهذا كله أثره فى الأمة الأسبانية وفى الكنيسة وفى  
الناس على اختلاف مشاربهم.

وبعد «كارلوس الخامس» تولى ابنه «فيليب الثانى» الحكم (وعمر  
ثربانتس تسع سنوات) ليواصل ما بدأه أبوه، ويمضى فى حروبه  
شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وينشئ المعبد المسيحى الضخم الذى  
يعتبر الأعجوبة الثامنة من أعاجيب الدنيا وهو دير الرسكوريال  
تخليداً لانتصاراته على فرنسا، وينتصر على الأسطول العثمانى فى  
موقعة «ليبانتو» التى شارك فيها ثربانتس.

مات «فيليب الثانى» عام ١٥٩٨ وثربانتس فى الحادية والخمسين،  
ثم قدر لكاتبنا أن يعيش بعد حكم «فيليب الثانى» ثمانية عشر عاماً  
أخرى فى عصر «فيليب الثالث» الذى خلف أباه وبقي فى الحكم حتى  
عام ١٦٢١، وقد شهد ثربانتس على عهد هذا الملك الأخير الانهيار  
السريع الذى كانت تسير نحوه أسبانيا بخطى حثيثة، بل إنه شهد

بوادر هذا الانهيار فى أيام «فيليب الثانى» نفسه، شهدته ممثلاً فى تدمير الأسطول الأسبانى على يد نظيره الإنجليزى عام ١٥٨٨، فانتتهت بذلك أسطورة هذا الأسطول البحرى الذى لا يقهر (كما كانوا يلقبونه) ولئن كان ثريانتس قد شهد انتصار هذا الأسطول على الأتراك فى معركة «ليانتو» المذكورة فإن تفريط أسبانيا فى هذا النصر الغالى وعدم استثمارها له حفز الأتراك على العودة إلى تهديد البحر والبر من جديد، لقد رأى ثريانتس أيضاً فى عهد «فيليب الثانى» ثورات الأراضى الواطئة على أسبانيا تتصل ولا تنقطع، ومن ورأئها التهديدات الفرنسية والإنجليزية. كما شاهد كثيراً من المعازل الأفريقية التى احتلها الجيش الأسبانى تسقط واحداً تلو الآخر، وعين فوق هذا وذاك الثورة داخل الأراضى الأسبانية نفسها تقوم بها تلك الجموع الصغيرة اليائسة من بقايا المسلمين التى اعتصمت بالجبال (البشرأت Alpujarras متحدية سلطان الإمبراطورية، وإن كانت أسبانيا قد تمكنت فى النهاية من القضاء عليها وترحيل الموريسكيين من أرضها)

أما فى عهد «فيليب الثالث» فقد لمس ثريانتس بنفسه فوضى الإدارة الداخلية وضعف النفوذ الخارجى بما أوشك معه أن ينطفى مجد أسبانيا، وليس من شك فى أن هذا الانهيار السياسى والعسكرى والاقتصادى كان له أبلغ الأثر فى نفس ثريانتس وفى كتاباته أيضاً.

## إنتاج ثربانتس الأدبي:

إبداع ثربانتس موزع بين الأجناس الأدبية الرئيسية فى عصره: الشعر والمسرح والقصة، لكن شهرته قاصاً طغت على الجانبين الآخرين وتسببت فى عزوف الباحثين عنهما.

١- اختلف النقاد فى تقييم ثربانتس شاعراً، فبينما يذهب البعض إلى حد إطرائه والثناء عليه، نجد آخرين يقللون من شأن أعماله الشعرية، ولتوخى الحقيقة نقول إنه شاعر متوسط المستوى، وإن موهبته الشعرية لا ترقى إلى براعته النثرية المتمثلة فى فن القص، وقد اعترف ثربانتس بقدراته المحدودة فى هذا المجال حين قال فى قصيدته الطويلة «رحلة إلى البرناس»:

لاأكف عن العمل والمثابرة

لاجتلاء موهبتى شاعراً

وهى الملكة التى حرمتنى منها السماء.

وجزاء كبير من أشعار ثربانتس الغنائية (المتأثرة بنظائرها الإيطالية والأسبانية، لاسيما بشعر جارتيلاسو دى لاييجا) مدرج فى أعماله القصصية حيث يشتمل «دون كيخوته» و«بيرسيليس» على بعضه، بينما تحتوى «لا جالاتيا» و«قصص مثالية» على معظمه، كما أن قصائد أخرى غير مدرجة فى أعمال نثرية، مثل: السونيت الساخر الذى يحمل عنوان «إلى جثوة فيليب الثانى» Al túmulo de Felip II وقصيدة «رسالة إلى ماتيو بانكيث»، وقصيدتان فى الأسطول الأسباني قبل نكبته وبعدها..وله أيضا عمل شعري منفرد

عبارة عن قصيدة مطولة بعنوان «رحلة إلى البرناس» (أو رحلة إلى وادي عبقر) صدرت عام ١٦١٤ في مدريد، وفيها يتحدث عن شعراء عصره (واحداً بعد آخر) المجتمعين أمام أبو اللو - إله الشعر والجمال - بعد استعانة الأخير بهم للقفح عن جبل البرناس ضد الشعراء الدخلاء الذين يريدون اقتحامه، وتكمن أهمية هذه القصيدة الطويلة - المكتوبة في شكل ثلاثيات - في اشتغالها على كثير من المقطوعات الشعرية التي تتناول جوانب عدة من حياة مؤلفها وتمييزها عن مدى ما كان يكابده في خريف عمره من حزن وكآبة.

٢- كانت الكتابة للمسرح خلال ذلك العصر تدر - علاوة على الشهرة - عائداً مادياً مجزياً، وتكفي الإشارة في هذا المقام إلى حظ لوبي الوافر منهما، وقد أدلى ثريانتس بدلوه في هذا الجنس الأدبي، لكنه لم يحظ فيه لا بالشهرة ولا بالمال.

أما بالنسبة للأعمال المسرحية التي كتبها فيمكن تقسيمها إلى مرحلتين مختلفتين: المرحلة الأولى وتتميز بالوفاء للقواعد الكلاسيكية (مثل: اقتصار المسرحية على خمسة فصول، ووحدة الزمان والمكان، واستخدام لغة راقية رصينة) وقد كتب ثريانتس خلال هذه المرحلة العديد من المسرحيات التي عرضت في حياته ولاقت نجاحاً، ولم يضل إلينا من إنتاج هذه المرحلة سوى عمليتين فقط، وهما:

«معاهدة الجزائر» El trato de Argel

و «حصار نومانثيا» El Cerco de Numancia

كان ثريانتس يتهمك خلال هذه المرحلة (كما جاء في الجزء الأول

من «دون كيخوته» من المسرح الشعبى للوبى دى بيجا الذى يتوخى البساطة والمرونة، ناعماً إياه بالابتعاد عن القواعد الكلاسيكية، لكنه تراجع بعد عدة سنوات - إزاء النجاح الكبير للموجة الجديدة - عن أفكاره القديمة وأذعن فى النهاية للتجديد الذى أحدثه «لوبى» لأن مرور الأيام - حسب قوله - كفيف بتغيير الأشياء وإنضاج الفنون»، ومن ثم فقد جاء إنتاج المرحلة الثانية مواكباً لتيار التجديد ومرتبياً بعباعته، وهو عبارة عن «ثمان مسرحيات كوميدية» - Ocho comedi- as ، وثمان لوحات شعبية ذات طابع فكاهى ساخر-Ocho entremeses ، نشرت جميعها فى سنة ١٦١٥ ولم تعرض على خشبة المسرح أبداً لموت صاحبها فى العام التالى، ومن بين المسرحيات الثمانى الكوميدية تبرز: «حمامات الجزائر» Los banos de Argel و«تاجر الأعراض المحظوظ» -El rufian di-choso . أما اللوحات المسرحية الهزلية، المكتوبة نثرًا Entremeses ، فهى أكثر ما عرف من مسرح ثربانتس وحظى بالتقدير والثناء من جانب النقاد، إذ اعتبرها الكثيرون من أهم آثار المسرح الأسبانى على مر العصور، ويعتبر «لوب رويدا» Lope Rueda من أبرز الكتاب القدامى الذين ألفوا فى هذا اللون المسرحى، ورغم هذا فإن مقطوعات ثربانتس الهزلية تفضل ما كتبه «رويدا» وتتفوق عليه فى الحيوية وخفة الظل والسخرية اللاذعة، وهذه اللوحات (التي كانت تعرض خلال فترة الاستراحة بين فصول المسرحية الطويلة) عبارة عن مسرحية قصيرة (من فصل واحد) ذات حدث بسيط وموضوع

فكاهى يدور حول شخصيات شعبية محددة بدقة.

ومن أهم مقطوعات ثريانتس الثمانية نذكر: «قاضي الطلاق» El Juez de los divorcios و«كهف شلمنقة»- La cueva de Sala ، و«لوحة المعجزات» El retablo de las maravillas ، و«الحارسة اليقظة» La guarda cuidadosa . ويختلف مسرح ثريانتس عن مسرح لوبى دى بيجا فى أنه يركز على الجوانب النفسية للشخصيات وفحص دواخلها أكثر من اهتمامه بالحبكة الدرامية، كما أن تطور الأحداث فيه يفتقر إلى المهارة، وإن كانت طبائع الشخصيات ورغباتها وأحاسيسها مرسومة بعناية وإتقان شديد.

٣- بدأ ثريانتس مشواره الأدبى بقصة «لا جالاتيا» La galatea ، المنشورة فى سنة ١٥٨٥، وهى تنتمى للون قصصى يعرف «بقصص الرعاة» وتشتمل على كل عناصره تقريبا: مثالية الناظر الطبيعية والأجواء التى تدور فيها الأحداث، والحب الأفلاطونى (على شاكلة León Hebreo) والنكبات العاطفية والعقبات الوعرة التى تعترض طريق المحبين، ورتابة الأحداث لطول الحوارات السقيمة بين الرعاة، والنهايات غير المتوقعة نتيجة تدخل السحرة،... إلخ.

وقصة ثريانتس لاتضيف جديداً فى هذا المجال ولا تعتبر من أفضل ما كتب فيه لأن أحداثها طويلة والشعر المدرج فيها زائد عن الحد وللصنعة المهيمنة على أسلوبها ، ورغم ضالة القيمة الفنية لهذا العمل فإنه يكشف لنا عن جانب مهم فى التكوين الثقافى

والأيديولوجى للمؤلف ويتمثل فى : تشربه للأجناس الأدبية السائدة حينذاك وولعه بأفكار عصر النهضة وإتجاهاته (مثل الأفلاطونية، وتمجيد الطبيعة، وإضفاء المثالية على عالم الرعاة..) ومن هنا يتضح أن مثالية ثربانتس تنهل من معين عالمى الفروسية والرعاة... ومما يدل على شدة تعلق ثربانتس بهذا اللون القصصى (رغم تهكمه الساخر فى أخريات حياته من العالم الخيالى الذى يصوره الكتاب للرعاة حين قال: إنهم يقضون يومهم فى استخراج القمل والحشرات من أجسادهم وفى ترقيع ثيابهم المهلهلة) أنه ظل يعد إلى ما قبل وفاته بقليل بإخراج جزء ثالث من القصة، وأن رواية دون كيخوته تضم لوحات طبيعية مثالية على غرار الموجود منها فى قصص الرعاة، وأن بطله دون كيخوته فكر - بعد عودته إلى قريته مهزوماً مكولماً - فى تطبيق الفروسية والاشتغال بالرعى.

وفى عام ١٦٠٥ صدر الجزء الأول من دون كيخوته بينما ظهر الجزء الثانى بعد عشر سنوات كاملة، ويدين ثربانتس - بشهرته الواسعة قاصداً - لهذه الرواية التى طبقت شهرتها الآفاق واعتلت عرش الفن الروائى فى العالم أجمع، ولما كان الحديث عن هذه الرواية الخالدة يفوق حدود الإطالة على الكنوز «الثربانتسية» فإننا نحيل القارئ إلى المقدمة المركزة التى استهل بها الدكتور الأهوانى ترجمته لها.

وفى عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة ثربانتس الأخرى التى تحمل عنوان «قصص مثالية» وفى مقدمتها يعلن على الملأ أنه



أول من ألف قصصا فى اللغة الأسبانية، لأن الموجود منها قبله كان: إما مترجما أو نابعاً من التراث الفلكلورى أو مستقى من الأدب الإيطالى أما هذه - يقول ثريانتس - فتخصنى وحدى ، وليست مقلدة أو مستعارة، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى، وشبت بين ذراعى خيالى، وإعلان المؤلف هذا ليس من قبيل الإدعاء ولا يجافى الحقيقة لأن مصطلح «قصة» Novela كان يطلق حينذاك - طبقا للمفهوم الإيطالى السائد - على «القصة القصيرة» فقط، وعلى هذا فإن الموجود منها فى أسبانيا كان قبل ثريانتس إما ترجمات أو اقتباسات ملائمة للذوق المحلى، ولهذا السبب نجد أن كثيراً من رجالات الأدب المنصفين قد اعترفوا - بعد قراءتهم لقصص مثالية - بأصالة ثريانتس فى هذا المجال حتى إن أحدهم (تيرسو دى مولينا) أطلق عليه لقب بوكاشيو الأسبانى، وخير دليل على ريادة ثريانتس فى هذا اللون القصصى هو اقتفاء كُتاب القرن السابع عشر لأثره ومحاسنهم لفنه وأسلوبه، بل إن البعض منهم لم يتورع عن استعارة عنوان «قصص مثالية» لإصداراته.

أما عن وصف المؤلف لمجموعته القصصية بـ «مثالية» فقد برره فى المقدمة المشار إليها على النحو التالى: لأنها لا تخلو من الأمثلة والنماذج المفيدة، ولو لم أكن حريصا على عدم الإطالة فلربما أوضحت لك - موجهاً كلامه إلى القارئ - الثمرة اللذيذة العفيفة التى يمكن استخلاصها منها مجتمعة أو من كل واحدة منها على حدة. وعلى الرغم من تفسير الكاتب لمعنى كلمة «مثالية» التى اختارها

وصفاً لهذه المجموعة فإن النقاد اختلفوا ما بين مؤيد ومعارض لما ذهب إليه: فالبعض منهم يعتقد أنها (إذا ما قورنت بمثيلاتها من القصص الإيطالية خالعة العذار، كما في El Decamerón على سبيل المثال) ترمى حقاً إلى تنقية الروح مما شابها، وتدعو إلى الطهارة والعفة، وتنتصر للفطرة، وتهدف - من خلال الأمثال والعظات - إلى تقويم السلوكيات والعادات الاجتماعية الخاطئة، أما البعض الآخر من النقاد فيرجع حرص ثريانتس في المقدمة على إبراز الهدف التربوي والأخلاقي للعمل إلى خوفه من محاكم التفتيش التي قد تعثر فيه على ما يتعارض مع العقيدة أو القيم الاجتماعية السائدة وقتذاك. الفجرية هي القصة الأولى في هذه المجموعة التي لن نكون مبالغين إذا قلنا إنها تعتبر كتاباً مفتوحاً للمؤرخين وعلماء الاجتماع.

**د. على عبد الرؤوف البمبي**

الفجرية

---



يبدو أن العجر - ذكوراً وإناثاً - جاؤا إلى هذا العالم ليكونوا  
لصوصاً: فهم ينحدرون من أصلاب وأرحام لصوص، يتربون بين  
اللصوص ، يتعلمون فن اللصوصية، ويمارسون فى النهاية - فى كل  
وقت وتحت أى ظرف - ما يحيون لأجله.. وشهوة السرقة عندهم لا  
تخبو جذوتها إلا مع انتزاع الروح من الجسد... من بين هؤلاء  
كانت توجد فى وطننا عجرية شمطاء، بلغت من العمر أرذله وانتهت  
بذلك صلاحيتها واستحقت الإحالة إلى التقاعد طبقاً لشريعة  
«كاكو»<sup>(١)</sup>. التقطت هذه العجوز طفلة اسمتها «پريثيوثا»<sup>(٢)</sup>،  
احتضنتها على أنها حفيدتها، أشربتها خصال العجر ، وعلمتها  
فنون السرقة وكافة أساليب الغش والاحتيال، برعت «پريثيوثا» فى  
الرقص والغناء وتفوقت فيهما على جميع أفراد عشيرتها، كما برزت

فى الجمال والفظنة والأدب سائر بنات قومها، بل وكافة الشهيرات بتلك الصفات فى عصرها، لم تفلح قسوة الشمس ولا تيارات الهواء ولإرداءة الطقس - التى يتعرض لها العجر أكثر من غيرهم - فى النيل من نضارة وجهها أو تشويهه وديباغة بشرتها أو نعومة يديها، وعلاوة على ما تقدم فقد كانت حسيطة ومهذبة للغاية وكأنها نشأت فى أرقى البيوتات لا داخل مضارب العجر، كانت تتمتع أيضاً بشىء من الملاحه والظرف، لكن فى غير تهتك أو استهتار، وتتميز بالعفة، إذ لم تكن تجرؤ عجرية - شابة كانت أم عجوزاً - على ترديد الأغانى الهابطة الخليعة أو النطق بكلمة خادشة للحياء فى حضرتها ، عندما أدركت أننى الصقر العجوز قيمة الكنز الذى بين يديها قررت تسريح فرخها من قفصه كى يسبح طليقاً فى الفضاء بعد أن علمته كيفية العيش معتمداً على مخالفه.

تعلمت «پريثيوثا» كما هائلاً من الأغانى الدينية والطقنوقات والأغانى الشعبية - لا سيما الرومانثية - التى كانت تصدح بها فى ملاحه منقطعة النظر، ولأن جدتها الداھية كانت متيقنة من أن تلك المواهب المصحوبة بجمال حفيدتها الفريد ستصبح خلال سنوات معدودات عوامل جذب سعيدة لكل ما من شأنه زيادة أرسدتها ، فقد حاولت بشتى الطرق دعمها وصقلها ، ومنها الاستعانة بعدد من الشعراء فى تأليف الأغانى ، فمن المعروف أن هناك شعراء يتعاملون مع العجر ويبيعون لهم أشعارهم مثلما يفعلون مع العميان الذين يدعون الإتيان بالمعجزات بهدف توسيع أرزاقهم: فعاملنا الذى اختلط

فيه الحابل بالنابل قد تهبط فيه العبقرية دون سابق إنذار - تحت وطأة الجوع - على رعوس أناس لا هم في العير ولا في النفير.

تربت «بريثوثا» في أماكن عدة من قشتالة، ولما بلغت الخامسة عشرة أعادتها الجدة المزعومة إلى العاصمة، إلى مضارب الغجر الواقعة فيفضاء «سانتا باربرا»<sup>(٣)</sup>، عازمة على ترويج بضاعتها في المدينة التي يباع فيها كل شيء ويشترى، دخلت بريثوثا مدريد لأول مرة في عيد «سانتا آنا»<sup>(٤)</sup> - راعية المدينة وحاميتها - وشاركت في رقصة تضم ثمان عجريات (أربع شابات ومثلهن عجائز) علاوة على غجری ضليع يقود الفرقة، ورغم أنهم جميعاً كن في أوج نظافتهم وزينتهم بيد أن نظافة «بريثوثا» سحرت العيون التي كانت تنظر إليها... ومن بين نغمات الطبول ونقر الأصابع واللففات السريعة سرى حفيف الأصوات مشيداً بجمال وملاحة العجرية الصغيرة، فتجمع الناس من كل حدب وصوب لرؤيتها، لكن إعجابهم بها تعاضم عندما أخذت تشدو بصوتها العذب الذي نال رضا واستحسان القائمين على الاحتفال واعتبروا غناءها بمثابة الدرة الثمينة على صدر أفضل رقصة قُدمت، انتقلت الفرقة بعد ذلك لأداء رقصتها المصحوبة بالغناء في ساحة كنيسة «سانتا مازيا»<sup>(٥)</sup> أمام صورة «سانتا آنا» وعندما جاء الدور على بريثوثا تناولت دقاً وعلى نغمات جلاله غنت الرومانث التالي، وهي تدور حول نفسها دورات متسعة، رشيقة ولطيفة:

شجرة رائعة فريدة

أُخِرَتْ ثَمَارُهَا  
سِنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ  
جَلَّتْهَا بِالْحَدَادِ،  
وَتَمَكَّنَتْ مِنْ جَعْلِ الرِّغْبَاتِ  
الشَّرِيفَةِ الْخَالِصَةِ لِلْقَرِينِ،  
تَعْصَفُ بِأَمَالِهَا  
العَارِيَةَ عَنِ الْيَقِينِ،  
وَمَنْ تَأَخَّرَهَا الطَّوِيلُ  
تُولَدُ ذَلِكَ الْكُدْرُ  
الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْمَعْبُدِ  
بِالذِّكْرِ الْأَشَدِّ صَوَابًا وَحُنْكَةً:  
أَيْتَهَا الْأَرْضُ الْجَدْبَاءُ الْمُقَدَّسَةَ  
لَقَدْ تَمَخَّضَتْ فِي النِّهَائِيَّةِ  
عَنْ كُلِّ هَذِهِ الْوَفْرَةِ  
الَّتِي يَحْيَا عَلَيْهَا الْعَالَمُ،  
أَنْتِ دَارُ لِسْكَ الْعَمَلَةِ  
فِيهَا تَشْكَلُ الْقَالِبُ  
الَّذِي سَكَتَ فِيهِ  
صُورَةُ الرَّبِّ الْبَشَرِيَّةِ،  
يَا أُمَّ لَابِنَةَ  
اسْتِطَاعَ الرَّبُّ مِنْ خِلَالِهَا



تسطير عظيم قدرته  
على صفحة الزمان الأبدية،  
إلى ساحتك وساحتها  
أنت، يا أنا الملاذ  
حيث تتجه أرزأونا  
ياحثة عن العلاج،  
على نحو ما، لاشك عندي،  
لك في إسبراطورية الحفيد  
للرحمة والعدالة  
حصاة لا يُستهان بها.  
لأنك في القصر الأعظم  
تشاركين، لابد أن بصحبتك هناك،  
عن بكرة أبيهم  
آلآفا من الأقارب.  
يالك من ابنة، ياله من حفيد  
وياله من صهر! في الانتصار  
لقضية الحق والعدالة  
منجم ثرٌ لا ينضب  
أنت الآن إلى جوار  
الرب المبدد للوحشة  
تنعمين بجلال

بالكاد أتخيله.

أعجب الحاضرون بشدوها، وتناثرت حولها التعليقات: منهم من قال: «بوركت، أيتها الفتاة! بينما عبر آخرون عن أسفهم قائلين: «واحسرتاه على الشابة العجرية ! لاتستحق أن تكون كذلك، بل ابنة لسيد عظيم». وفريق ثالث كان أشد فظاظه حين ردد: دعوا الصبية تكبر لتصبح على شاكلة زويها. نقسم أن بداخلها تتخلق حالياً شبكة مفعمة بالعقد لاصطياد القلوب الولهانة». ولم يعدم المقام رجلاً أشيب تخلى عن وقاره عندما شاهدها ترقص بخفة ليغازلها قائلاً: هلمى يا بنية، هلمى، ادعسى، يا حبى ، ذرات التراب الدقيقة تحت قدميك»، فردت عليه دون أن تمسك عن الرقص: وسأدعس معه كلماتك السالخة».

انتهى عيد «سانتا أنا» الذى رجعت منه پريثيوثا إلى مضارب العجر منهكة بعض الشيء ، لكنها خلّفت وراءها أثراً طيباً فى النفوس، وأصبح الناس فى المدينة يتحدثون فى حلقات عن جمالها وصرامتها واستقامتها. بعد مضى خمسة عشر يوماً عادت ثانية إلى مدريد بصحبة ثلاث فتيات وهن مستعدات بالدخول وبرقصة جديدة وأغان رومانثية وأخرى قصيرة مبهجة لكنها عفيفة، هذا لأن پريثيوثا لم تكن تسمح لمن يرافقها بالغناء الهابط الخليع الذى لم تقربه أبداً، ولهذا نالت إعجاب الجميع وأصبحت محطاً لأنظارهم، لم تكن عين العجرية العجوز تغفل عنها لحظة واحدة - كأنها «آرجوس»<sup>(٦)</sup> - خوفاً من قيام أحدهم باختطافها: كانت تناديها

بحفيدتى فترد عليها الصبية بجدى... شرعن فى الرقص فى الجانب  
الظليل من شارع طليطلة، ولم يكن يبداً حتى أخذت العجوز فى  
الطواف على الحلقة لتلقى إحسانات المتفرجين التى كانت تنهمر  
عليها - فى شكل فلوس وأنصافها<sup>(٧)</sup> - كالمطر ، ذلك لأن الجمال  
الأخاذ يجبر الإحسان النائم على الاستيقاظ.

وعندما انتهت الرقصة قالت بريثوثا:

- لوأعطانى كل واحد منك فلساً سأغنى منفردة رومانثاً رائعاً  
للغاية يتناول قداس الرحيل الذى أدته صاحبة الجلالة الملكة  
«مارجريتا» قبيل مغادرتها «بلد الوليد» إلى «سان يورنتى» إنه  
رومانث مشهور، من تأليف شاعر فحل، مكانته بين زملائه مثل مكانة  
قائد الفرقة بين الجنود.

لم تكد تُنهى جملتها الأخيرة حتى رد عليها المتحلقون فى صوت  
واحد:

- هيا ، يا بريثوثا، غنى ولك ما تطلين.

وهكذا انهمرت الفلوس عليها كقطع الثلج الصغيرة لدرجة أن  
العجوز كانت بحاجة إلى أكثر من يدين لالتقاطها، بعد جمع  
المحصول قرعت بريثوثا الدف وعلى نغماته السريعة المتتامة غنت ما  
يلى:

إلى قداس الرحيل خرجت

ملكة أوروبا العظيمة،

فى الاسم والقدر

جوهرة غالية ثمينة.  
تتجه إليها العيون  
فتخطف ألباب الناظرين  
المعجبين بورعها،  
ببهاؤها وموكبها الفخيم.  
ولييان أنها قطعة من السماء  
تشغل الأرض بحذافيرها،  
على يمينها كانت «شمس النمسا»  
و«الصبح الندى» على يسارها.  
خلف ظهرها يتبعها  
«فلك الزهرة» بازغاً  
فى غير مواعده، ليل النهار  
تبكيه الأرض والسماء.  
لو كانت السماء تحظى  
بعربات مضيئة من النجوم،  
فهناك عربات أخرى تزين  
النجوم الحية سماءها.  
«زحل» العجوز هنا  
يصقل لحيته ويجدها،  
ورغم تأخره، إلا أنه يمضى رشيقاً،  
فالبهجة تشفى من النقرس.

الإله الثرثار يلقي  
بكلام معسول مداهن،  
يرصع «كيوبيد» شفرات متنوعة  
باللالئ والياقوت الأحمر.  
هناك يمضى «مارس» الغضوب  
فى هيئة طريفة نادرة  
أكثر حيوية من شاب رشيق،  
تعلوه الدهشة من ظله.  
إلى جوار «بيت الشمس»  
يمشى «جوبيتر» لا يوجد شئ  
محال على الحظوة  
القائمة على قواعد حصيفة.  
يختال «القمر» على حدود  
إلهات عديدة من البشر،  
«فينوس» عفيفة، تتراءى فى جمال  
اللواتى صاغتهن يد القدر.  
أطياف صغيرة لـ «جانيميدس»<sup>(٨)</sup>  
تغدو، تروح وتعبر  
هذا المجال الأسطورى  
بأحزمة مزركشة بمسامير ذهبية.  
ولكى يتم إعجاب الجميع

ويكتمل ذهوله، لا يوجد شئ  
قد يتصوره الخيال  
إلا وهو موجود بسخاء بالغ.  
«ميلان» بأقمشتها الوثيرة،  
الهند بلائها المثيرة،  
وبعطرها شبه جزيرة العرب  
يخطرن هنالك فى مشهد عجب.  
مع أصحاب النوايا السيئة  
يمضى الحسد بأنياه القواطع،  
بينما تعشش الطيبة فى صدر  
الإخلاص الأسباني.  
فرحة العالم بأسره،  
هاربة من الضيق والكدر،  
تجوب الشوارع والميادين،  
متجاسرة على حافة الجنون.  
بالآف التسابيح الخرساء  
أنطق الصمت الأفواه،  
يردد الفتیان  
ما لهجت به ألسن الرجال.  
صوت ينادى: «أيتها الكرمة الخصيبة  
ازدهرى، ارتقى، عانقى وداعبى

درّ دارك الحقلى  
لتصبحى لألف قرن ظلاً  
لعظمتك ومجدك،  
لخير أسبانيا وشرفها،  
لنجدة الكنيسة ودعمها،  
لدهشة دار الإسلام وعجيبها»<sup>(٩)</sup>.  
صاح لسان آخر منشداً:  
«انعمى بالحياة، أيتها الحمامة البيضاء،  
لتلدى لنا من صلب تاجين صقوراً جارحة  
بدلاً من الأولاد،  
يفزعون من الهواء  
الخطّافين الهائجين،  
وينشرون أجنحتهم  
على الفضائل الرعيدة»،  
لسان ثالث، أكثر فطنة ومهابة،  
أشد حدة وغرابة،  
قال، ساكباً البهجة  
من الفم والعينين:  
هذه الدرّة التى أنعمت بها علينا،  
عرق اللؤلؤ للنمسا، وحيدة فريدة،  
عليها تتحطم آلات الحرب

وتتهشم النوايا الخبيثة،  
تنسكب منها الآمال والأحلام  
وتتمحى أمامها الرغبات الأثيمة،  
إنها تبعث المخاوف  
وتجهض الأمهات الحوامل»،  
فى أثناء هذا وصلت إلى معبد  
«فينكس» المقدس الذى قضى نحبه  
فى روما محترقاً ، لكنه ظل حياً  
من خلال شهرته ومجده.  
إلى رحيق الحياة  
إلى راعية السماء،  
إلى من بتواضعها تدعس الآن  
النجوم تحت قدميها.  
إلى الأم والعذراء معاً،  
إلى «الابنه» وزوجة الإله،  
تتجه «مارجريتا» بالصلاة  
وهى جاثية على ركبتها:  
«أقدم لك ما وهبتنى إياه،  
أيثها اليد المعطاءة،  
لو غاب إحسانك ومعروفك  
يطفح البؤس دائماً والشقاء.



من فاكهتي هاهى الباكورة  
أقدمها لك، أيتها العذراء الجميلة:  
أنت الراعية لأولئك وهؤلاء،  
تتلقفينهم ، تحمينهم وتدفعينهم إلى الأمام.  
أعهد بك إلى أبيك وأوصيه بك،  
«عملاق بشرى» يحنى ظهره  
ثقل ممالك كثيرة  
وبلاد جد سحيقة.  
أعرف أن قلب الملك  
فى يد الرب يقطن،  
وأن كافة طلباتك - أيتها الرحيمة -  
تلقى من الرب استجابة».  
عندما انتهت هذه الصلاة  
تلتها أخرى مشابهة تغنت بها  
الأناشيد والأصوات التى توحى  
بأن «المجد» على الأرض ماثل.  
اختتمت الطقوس  
بالمراسم الملكية،  
وإلى أدراجها عادت  
صاحبة المنزلة العلية<sup>(١٠)</sup>.

لم تكدر بريثوثا تنتهى من غنائها حتى دوى التصفيق وتعال

هتافات الجمهور فى صوت واحد:

- عودى للغناء فالفلوس معنا كثيرة ولن نضن بها عليك.

كان حاضراً هناك ما يزيد عن مائتى شخص يشاهدون الرقصة

ويستمعون إلى الغناء.

تصادف هذا المشهد مع مرور أحد ضباط المدينة برتبة ملازم، ولما رأى الجماهير المحتشدة سأل عن السبب فأخبروه أنهم يستمعون لغناء شابة عجيبة جميلة. اقترب الملازم بدافع حب الاستطلاع، ولما كان المقام لا يتناسب مع طبيعته الجادة لم يستمع للرومانث حتى آخره، لكنه أمر خادمه - لشدة إعجابه بالفتاة - بالذهاب إلى العجيرة العجوز ليطلب منها زيارة الضابط فى بيته مع فرقته لكى تستمع إليها زوجته «دونيا كلارا»، نفذ الخادم أمر سيده فأبلغته العجوز أنها والفرقة رهن إشارته، انتهين من الرقص والغناء، وأثناء انتقالهن إلى مكان جديد اقترب منهن أحد الوصفاء الشبان ثم اتجه نحو بريثوثا وسلمها ورقة مطوية قائلاً لها:

- غنى الرومانث المدون فى هذه الورقة، وسأمك - من وقت لآخر - بقصائد أخرى ستجعل منك أشهر وأفضل مغنية رومانث فى العالم. - سأحفظه عن طيب خاطر، وأرجو ألا تنقطع إمداداتك بشرط أن تكون عفيفة، ولو أردت لها مقابلاً سيكون الحساب بعد كل مجموعة من اثنتى عشرة قصيدة : أى بعد غنائها لأن مجرد التفكير فى ثمنها مقدماً أحد ضروب المستحيل.

- ساكون سعيداً - رد عليها الوصيف - بأى مبلغ ألتقاه منك،

وعلاوة على هذا لو تبين أن الرومانث ردى أو غير عفيف لن يدخل ضمن الحساب.

- أنا وحدى المعنية بالانتقاء وتحديد المناسب من عدمه - ردت عليه.

وفى أثناء سيرهن فى الشارع سمعن أصوات رجال تنادى عليهن من خلف قضبان إحدى النوافذ ، أطلت بريثيوثا من القضبان فشاهدت صالة فاخرة الأثاث منعشة الهواء وبداخلها رجال كثيرون: بعضهم يتسلى بالألعاب المختلفة، والبعض الآخر يزرع الصالة جيئة وذهاباً.

- أتريدون أن أقوم بتوزيع ورق اللعب عليكم أيها «القادة» ؟ (نطقت بريثيوثا «السين» ثاء فى الكلمة الأخيرة لأنها غجرية ، والفجر اعتادوا ذلك رغم أنه ليس متصلاً أو طبيعياً فيهم)<sup>(١١)</sup>.

على صوت بريثيوثا العذب ووجهها المضى أمسك اللاعبون عن اللعب والمتجولون عن السير، واتجهوا جميعاً صوب النافذة لرؤية الفتاة التى سمعوا عنها قبل أن يشاهدوها، قالوا لها:

- ادخلى ومعك زميلاتك لتوزعى علينا ورق اللعب ولك حصة معتبرة فى مكسب الفائز سعيد الحظ.

- سأدخل لو عاهدتمونى على التزام الأدب وعدم الإتيان بما يخذش الحياء.

- يمكنك الدخول يا صبية - قال أحدهم - وأنت مطمئنة إلى أنه لن يمس واحد من الموجودين شعرة من حذائك ، أقسم على هذا بشرفى

كرجل وبشرف شارة الفروسية التى أضعها على صدرى. (نطق  
بالجملة الأخيرة وهو يضع يده اليمنى على شارة أخوية قلعة رباح  
المقدسة).

- إذا شئت الدخول يا پريثيوثا فهنيئاً لك - قالت واحدة من  
الغجريات الثلاث المصاحبات لها - أما أنا فلن أضع قدمى فى مكان  
يعج بالرجال.

- اسمعنى يا «كريستينا» - ردت عليها پريثيوثا - ما عليك توخى  
الحذر منه بالفعل هو الانفراد برجل واحد وفى مكان منعزل لا  
بجماعة من الرجال، لأن كثرتهم تجعلك فى مأمن من تربصهم بك،  
وشئ آخر يجب ألا يغيب عن بالك : أن المرأة الحريصة على شرفها  
بوسعها الحفاظ عليه حتى لو كانت بين فرقة كاملة من الجنود،  
صحيح أن الابتعاد عن مواطن الخطر مطلوب، وأن على المرأة تفادى  
المواقف التى تجعلها لقمة سائغة فى فم الغير، لكن الخطر يكمن فى  
المواقف السرية المشبوهة لا فى العلنة على رعوس الأشهاد.

- لندخل إذن يا پريثيوثا .. قالت كريستينا - فأنت أفقه من حبر  
علامة..

حمستهن العجوز فدخلن، وفور دخول پريثيوثا لمح فارس قلعة  
رباح الورقة المطوية فى صدرها فاقترب منها واستلها بخفة، صاحت  
فيه عندئذ:

- آى ، لا تأخذها بالله عليك، إنها لرومانث أعطوه لى منذ قليل  
ولم أجد وقتاً لقراءته.

- وتعرفين القراءة أيضاً، يا بنية؟ - سألها أحدهم.  
- وتكتب كذلك - ردت العجوز - لقد رببت حفيدتى كما لو كانت ابنة معلم.

بسط الفارس الورقة فوجد بين طياتها إسكودو ذهبياً ، قال:  
- بالفعل، الخطاب يحتوى على الأجرة، مدى يدك، يابريثوثا،  
وتناولى الإسكودو الموجود بداخله.

- كفى - قالت - لقد عاملنى الشاعر كأننى فقيرة معدمة، غريب  
أمر هذا الشاعر! ومع هذا فلو كانت الأمور ستسير على هذا المنوال  
فأهلاً بأغانيه، بل إنى أتوسل إليه راجية أن يقدم لى مجموعات  
الرومانث بأكملها، واحدة تلو أخرى، ومن جهتى فلن أدخر وسعاً فى  
جس نبضها وإذا وجدتها صلبة سألتقاها عندئذٍ بكل طراوة وليونة.  
أعجب الحاضرون بكلام العجرية الصغيرة وبكياستها وظرفها.  
- اقرأ يا سيدى - أردفت پريثوثا - بصوت عال، لننظر ما إذا  
كانت إجابة الشاعر ترقى إلى مستوى كرمه.

قرأ الفارس مايلى:

أيتها العجرية الصغيرة، جمالك الأخاذ

ينتزع التبريكات من الأفواه:

ولما يحتوى عليه تكوينك من حجر

أطلقوا عليك پريثوثا<sup>(١٢)</sup>.

هذه حقيقة لاشية فيها،

سترين إذا نظرت إلى وجهك

أن الجمال صنو دائم  
للصدود والإباء.  
مثل القيمة المتعاضمة  
تكبرين فى خيلاء،  
وهذا يستدعى الخوف  
على سنوات عمرك الغض،  
«الباسيليسكو»<sup>(١٣)</sup> الذى ينمو  
بداخلك، يفتال ناظراً.  
والهيمنة الإمبراطورية، رغم لادانتها،  
نراها عستبدة طاغية.  
بين أنياب الفقر وفى ظل المخيمات،  
كيف يولد مثل هذا الجمال؟  
أو، كيف ربى تلك الجوهرة  
منتشارس<sup>(١٤)</sup> المتواضع؟  
لهذا سيكون شهيراً وبالنفس أكثر اعتداداً  
لو قارناه بـ بريميثوثا  
نهر التاجه المذهب  
لفيضان الماء عن شطّته.  
تنبئين بحسن الطالع  
وتجعلينه سقماً بعد ذلك،  
سويّاً، وفى طريق واحد

لايمضى مقصدك وجمالك  
فى النظر إليك أوتأملك  
يتربص خطر داهم،  
نواياك تستمىح له العذر،  
ومن جمالك ينبعث الموت،  
يقولون إنهن ساحرات  
سائر بنات قومك:  
لكن سحرك يا صبية  
أشد وقعاً ومصداقية،  
لأنك بحمل الأسلاب  
من كافة الناظرين إليك،  
جعلت، آه يا صبية!  
السحر كامناً فى عينيك.  
إلى الأمام قدماً تدفعك قواك،  
فأنت راقصة محط إعجابنا  
تجهزين علينا بسهام لحظك،  
وتستولين على الأفئدة بجمال شدوك  
لمئات ألوف أشكال السحر:  
كلام، صمت، غناء، نظرات،  
نناشدك الاقتراب أو الاحتجاب  
لأنك تؤججين نيران الحب فى القلوب.

على القلب الأكثر كمالاً  
تملكين الولاية والزماء،  
وعلى هذا خير شاهد  
قلبي السعيد فى جنانك.  
«بريثوثا» يا أيقونة الحب،  
يكتب هذا بكل تواضع وخنوع  
من يموت لأجلك ويحيا،  
بسأ رغم أنه عاشق .

- تتصدر البيت الأخير - عقت بريثوثا - كلمة «البأس» بما لها  
من دلالات سلبية، ومن وجهة نظرى فإنه لا يليق بالمحبين وصف  
أنفسهم بالبؤس لأن الحب والبؤس نقيضان لا يجتمعان.  
- من علمك هذا، يا صبية؟ - سأل أحدهم.

- وهل على انتظار أحد كى يعلمه لى؟ أليس لى عقل؟ ألم أكمل  
الخامسة عشرة من عمرى؟ وفوق هذا فلست كتعاء ولا عرجاء ولا  
سقيمة الإدراك. عبقرية الغجر تضى فى اتجاه مخالف لبقية البشر:  
دائماً يسبقون أعمارهم، لا يوجد غجرى مغفل، ولا غجرية خرقاء،  
وبما أن بقاءهم على قيد الحياة مرهون بحدة الذكاء والمكر والخداع  
فإنهم يشحذون قريحتهم كل أن ولا يتركون الصدأ يعلوها بأى شكل  
من الأشكال، ألا ترون هؤلاء الفتيات - صديقاتى - اللائذات  
بالصمت، الفاغرات الأفواه كأنهن بلهوات؟ جربوا وضعوا  
أصابعكم فى أفواههن وسترون إلى أى حد سينطبقن، تحسسوا



ضروس عقولهن وستشاهدون الأعاجيب، إدراك فتياتنا فى الثانية عشرة يضارع إدراك غيرهن فى الخامسة والعشرين، ذلك لأن معلمهن ومؤدبهن هو الشيطان نفسه - علاوة على الخبرة - وهما يعلمان فى ساعة ما يحتاج تعلمه إلى سنة.

سيطر الوجود على الحاضرين لما سمعوه من العجربة الصغيرة، وتبارى اللاعبون فى إعطائها بعضاً من مكاسبهم، ولم يبخل عليها كذلك غير المشاركين فى اللعب. تلقى كيس العجوز ثلاثين ريالاً، وعندئذ انفجرت أساريرها وبدأت أشد ابتهاجاً من «عيد الزهور»، وقبل قيامها باقتياد نعاجها إلى بيت الملازم وعدت أولئك السادة الكرام بالعودة يوماً آخر بقطيعها لإدخال السرور عليهم.

كانت امرأة الملازم (دونيا كلارا) على علم مسبق بالزيارة، ولذا كانت تنتظرهن على أحر من الجمر بصحبة جارة لها وقد التفت حولهما الخادمت والوصيفات اللاتي تجمعن هنالك لرؤية بريثوثا، عندما تخطت العجريات عتبة البيت بدت بريثوثا وسطهن كأنها وهج شعلة عظيمة بين أضواء أقل سطوعاً، وهكذا جرى الجمع نحوها: البعض يعانقها والبعض الآخر يتأملها مفتوناً، فهؤلاء يباركنها وأولئك يثنين عليها ويمتدحنها، قالت «دونيا كلارا»:

- هذا ما يصدق عليه المثل القائل: شعر من ذهب، وعينان من زمرد.

كانت الجارة - مختلجة الأعضاء والمفاصل - تدقق النظر فيها من أسفلها إلى أعلاها، استرعى انتباهها خال صغير على ذقن الفتاة

فلم تتمالك نفسها وعبرت عن إعجابها بصوت عال:  
- أي، ياله من خال! فى هذه الشامة تتعثر كافة العيون ولا  
تستطيع النظرات تجاوزها بسهولة.

كان موجوداً على مقربة منها الطواشى<sup>(١٥)</sup> (خادم دونيا كلارا،  
وهو رجل مسن ذو لحية طويلة) فعلق على ملاحظتها قائلاً:

- أْتُسمِّين هذه شامة، يا سيدتى؟ ورغم أننى لا أفقه كثيراً فيها  
إلا أنها لا تبدو شامة عادية، بل جدتاً للربغات المتأججة، يالله، كم  
هى جميلة! لو كانت مصنوعة من الفضة أو الحلوى لما بلغت ما هى  
عليه الآن، أتعرفين قراءة الكف يا صبية؟  
- بثلاثة طرق أو أربع - أجابته بريثوثا.

- وهل هناك غيرها! - ردت دونيا كلارا - استحلفك بحياة الملائم  
زوجى، اقرئيه لى، يا فتاة من الذهب، من الفضة الخالصة، من  
اللؤلؤ، من الزمرد والياقوت، بل يا قطعة من السماء، ولا أدرى ما  
يمكننى مناداتك به بعد ذلك.

عندئذ تدخلت العجوز قائلة:

- سلمى راحتك للفتاة وأعطيتها نقوداً كى تستخدمها فى الإشارة  
عليها بعلامة الصليب، وسترين كم الرؤى التى ستنهال عليك، إنها  
تفقه فى لوحة الحظوظ أكثر مما يعرفه دكتور فى الطب.

مدت امرأة الملائم يدها إلى جيبها وفتشت فيه فلم تخرج بفلس  
واحد، طلبت ربع ريال من خادمتها فلم تجد ريحه مع واحدة منهن،  
ولا مع الجارة أيضاً.

كانت بريثوثا ترقب عن كُتب ما يجرى فانبرت قائلة:

- مهلاً ، سيداتي الفضليات ، الإشارة بعلامة الصليب محمودة بأية قطعة نقدية، لكن الذهب يأتى فى المرتبة الأولى ومن بعده الفضة ، أما العملة النحاسية فإنها ، على الأقل فى قراءتى، تقوض الحظ وتفت فى عضده، ومن ثم فإننى جد راغبة فى استخدام إسكودو ذهبياً فى الإشارة بالصليب الأول، فإن تعذر فبريال صحيح، فإن تعذر فبنصف ريال، وهذا أضعف الإيمان، أنا ، أيتها المحترمات، مثل سدنة الكنيسة، كلما ثمن القربان كلما أُجزل الثواب.

التفتت الجارة إلى الخادم وسألته:

- ألا أجد معك نصف ريال يا «كونتيريراس» أعره لى، وسأرده لك فور عودة الدكتور زوجى.

- نعم لدى - أجاب الخادم - لكنه مرهون باثنين وعشرين مرابطياً<sup>(١٦)</sup> قيمة العشاء الذى تناولته ليلة أمس ، أعطنى قيمة الرهن وسأحضر لك نصف الريال قبل أن يرتد إليك طرفك.

- ما عهدناك إلا وقحاً يا كونتيريراس - قالت دونيا كلارا - لا نملك نصف ريال وتطلب اثنين وعشرين مرابطياً، امش من هنا.

عندما لاحظت إحدى الفتيات الموجودات إفلاس الدار وشدة جديها سألت بريثوثا:

- اسمعى ، يا صبية، أ يصلح كُشتبان<sup>(١٧)</sup> من الفضة لرسم علامة الصليب؟

- فى الماضى - ردت بريثوثا - كانت كشتبانات الفضة تستخدم

فى رسم أفضل الصلبان فى العالم، مادامت عديدة.  
- لى فقط واحد منها - ردت الفتاة من فورها - إذا كان يفى  
بالغرض فأليك به، شريطة أن تقرئى لى طالعى أيضاً.  
- بكشتبان واحد قراءات متعددة للكفا! - تعجبت العجوز  
- انتة سريعاً يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وظلام الليل يقترب.  
أخذت بريثيوثا الكشتبان ومعه يد زوجة الملازم ثم قالت:  
- أيتها الجميلة المتأنقة،  
يا من يداها من الفضة الخالصة،  
يهواك زوجك أكثر  
من عشق ملك البشيرات لإماراته،  
أنت حمامة وادعة،  
وعندما يساورك الغضب  
تبدين مثل لبؤة «أوران»،  
أو مثل فهد «أوكانيا».  
لكن الغضب الذى انتابك  
فى لحظة ينفك عنك،  
لتصبحى قطعة حلوى،  
أو نعجة أليفة مسالمة.  
تتشاجرين كثيراً وفى الطعام زاهدة:  
تسيطر عليك بعض الغيرة  
مما إذا كان الملازم عابثاً،

وبالعصا تريدين إخافته.  
أحبك عندما كنت أنسة  
أحد أصحاب الوجوه الصفيقة،  
ما يجره الوسطاء من سوء  
يفوق ما عصفت به اللذات.  
لو اخترت الدير بعدها  
لأصبحت اليوم رئيسته،  
فمن صفات رئيسة دير الراهبات  
تجمعت فيك ما يزيد عن أربعمائة.  
لا أود الإفصاح عما أراه..  
لضالة أهميته، يا للهول:  
ستصبحين أرملة، علاوة على مرة ثانية،  
ومرتين مثلهما، تكونين متزوجة.  
لا تبكى أيتها السيدة،  
فنحن نعاشر العجريات  
لا ننطق دوماً بالأخبار الطيبة،  
كفكفى دمعك واصمتي.  
لأنك ستقضين نحبك أولاً  
قبل السيد الملازم، يكفيك هذا  
للعلاج من ضر الترميل  
الذي يمسك بخناقك.

عما قريب، سترثين دون شك،  
ثروة عظيمة هائلة،  
سترزقين باين كاهن،  
خامل الذكر فى الكنيسة.  
يستحيل أن تكون من طليطلة.  
ابنة شقراء وبيضاء  
سيهيك الرب، لو كانت متدينة  
ستصبح راهبة ذات منزلة.  
لو لم يمت زوجك  
فى غضون أسابيع أربعة،  
سترينه مأموراً قضائياً  
على برغش، وربما شلمنقة.  
لديك خال، ما أروعه!  
أى، يسوع، ياله من قمر وضاء!  
يالها من شمس، تضىء هنالك فى الجهة المقابلة  
من سطح الأرض الوديان المظلمة!  
أكثر من ضريرين لرؤيتك  
يدفعون ما يزيد عن فلوس أربعة،  
الآن وأنت غنية موسرة!  
يالها من مزحة رائعة!  
توخى الحذر من السقطات،

على الظهر بصفة خاصة،  
لأنها عادة ما تكون خطيرة  
فى الهوانم المتأنقات.  
مازال فى جعبتى الكثير،  
لوانتظرتنى يوم الجمعة  
سأسمعك فىضاً منه، بعضه يسر الخاطر،  
وأغلبه كوارث ومحن.

عندما انتهت بريثيوثا تأججت الرغبة لدى الحاضرات لمعرفة  
حظوظهن ، لكنها أمهلتهن إلى يوم الجمعة، فوعدها بالانتظار فى  
الموعد المحدد ومعهن ريالات من الفضة للإشارة بعلامة الصليب.  
فى تلك الأثناء وصل السيد الملازم فحكيت له عن أعاجيب  
العجرية الصغيرة، جعلها ترقص بعض الوقت وتأكد من صدق  
ثنائهن عليها. دس يده فى جيبه - كأنه سيتحفها بشىء - لكنه بعد أن  
فتش فيه عدة مرات وقلبه بطناً لظهر أخرجها فى النهاية خاوية  
الوفاض وقال:

- يا إلهى، لا يوجد فلس واحد أعطها يا «دونيا كلارا» ريالاً  
وسأرده لك فيما بعد.

- ياله من طلب! - ردت عليه - لقد حاولنا تجميع نصف ريال وباعت  
المحاولة بالفشل وتأتى الآن لطلب ريال صحيح!

- أعطها إذن سروراً قديماً أو شيئاً آخر مما عندك، عندما تعود  
بريثيوثا لزيارتنا فى يوم آخر سنجزل لها العطاء.

ردت «دونيا كلارا» على الفور:

- مادامت ستعود مرة أخرى فلنرجى العطفة لحين عودتها.
- إذا لم تقدموا إلى شيئاً لن أحل بهذه الدار ثانية، ولن أتطوع بخدمة كبراء القوم أمثالكم حتى أوفر على نفسي عناء انتظار المقابل لجهودي، مد يدك للرشاوى يا سيادة الملازم، ارتش وستجد المال متوافراً لديك، ولا داعي للتمسك بأهداب الفضيلة فتقضى نحبك جوعاً، لقد تناهى إلى سمعى هنا (وأعلم - رغم ضالة سنى - أنها أقوال لا تمت إلى الحسن بصلة) أن الوظائف تفيد فى استخراج المال اللازم لرشوة القضاة من أجل الحصول على منصب أعلى.
- هذا ما يقوله ويفعله أصحاب الضمائر الخربة - رد الملازم بحدة
- لكن الأداء الجيد للعمل هو الذى يرقى بصاحبه لا الرشوة والمحسنوية.
- تتحدث بشفافية ومثالية يا سيادة الملازم - قالت بريثيوثا - وكأنك لا تعيش فى عالمنا هذا.
- تعرفين الكثير يا صبية - قال الملازم - سأرفع أمرى إلى صاحبى الجلالة لأن مكانك الطبيعى عندهما.
- لأصبح مهرجة هناك - ردت بريثيوثا - هذا ضد طبيعتى، ولو فعلته خسرت كل شىء، لو أرادانى مستشارة فليعجلا بحملى إلى هناك، علماً بأن الفلاح فى غالبية القصور يكاد يكون حكراً على المهرجين دون الحكماء، حالى يرضينى هكذا: غجرية فقيرة، وليمض الحظ السعيد هاتناً إلى حيث شاعت له الأقدار.



- حذار ، أيتها الصبية - تدخلت العجوز - لا داعى للتمادى، لقد تحدثت كثيراً ويبدو أنك تعلمين أكثر مما علمته لك، لا تسترسلى فى العميق من الأفكار حتى لا يوردك لسانك مورد الهلاك، تحدثى فيما يناسب سنك ولا تدسى أنفك فيما عظم من الأمور حتى لا تسقطى على أم رأسك من حالق.

- اللعنة! - قال الملازم - إبليس نفسه يتلبس أجساد هؤلاء العجريات.

أدت العجريات التحية، وعندما هممن بالانصراف قالت فتاة الكشيتان:

- اقرئى لى طالعى يا پريثيوثا أو ردى على كشتبانى لأنى أعمل به.

- اعتبرينى قرأته لك - ردت پريثيوثا - وعليك بشراء آخر أو الامتناع عن التطريز حتى يوم الجمعة القادم لأننى سأعود فيه وأمطرك بوابل من الأخبار السعيدة والمغامرات التى لا نظير لها فى كتب الفروسية.

مشين ، انضممن بعد ذلك - توخيا للأمن والسلامة - إلى طابور الفلاحات وفتيات الخدمة اللاتى يغادرن مدريد عادة ساعة صلاة المغرب فى طريقهن إلى بيوتهن بالقرى المجاورة. (هذا لأن العجرية العجوز كانت تعيش فى رعب مستمر من احتمال السطو على پريثيوثا واختطافها عنوة)

ذات صباح ، وهن فى الطريق إلى مدريد لممارسة نشاطهن فى

جمع الجباية<sup>(١٨)</sup> شاهدين - فى وادٍ صغيرٍ يبعد عن المدينة حوالى خمسمائة خطوة - فتى رشيقياً بهى الطلعة واقفاً فى منتصف الطريق بكامل عدته الحربية، كان يحمل سيفاً ودرقة يلمعان بشدة وكأنهما - على رأى القائل - جذوة من الذهب، ويضع فوق رأسه قبعة يتدلى منها شريط جميل ومزدانة بريش متعدد الألوان، تلكأت العجريات لرويته وأنعمن فيه النظر مبهوتات من وقوف شاب جميل مثله فى ذلك المكان وفى تلك الساعة من الصباح.

اقترب منهن وتحدث إلى العجرية العجوز قائلاً:

- أستحلفك بحياتك، أيتها الصديقة، أن تتكرمى وتعطينى الفرصة

لأحدثك أنت و«پريثيوثا» على انفراد بكلمتين لصالحكما.

- إذا لم نبتعد كثيراً أو نتأخر فعلى الرحب والسعة - ردت

العجوز.

نادت على حفيدتها ، ثم انتحوا جانباً لمسافة عشرين خطوة،

وهكذا - وهم وقوف - أخبرهما الفتى بما يلى:

- لقد ملك على زمام نفسى جمال پريثيوثا وحصافتها فبذلت

قصارى جهدى لأتخلص من إسار هذا الهوى حتى لا أتلظى بنيرانه،

لكننى فشلت فى النهاية ولم أستطع التملص منه وأصبحت أكثر

رضوخاً واستسلاماً عن ذى قبل، أنا، يا سيدتى - وسأظل أناديكما

هكذا إذا حققت السماء ما أصبو إليه - فارس كما تريان (وأزاح

عندئذ عباة فآبان على الصدر شارة للفروسية تعتبر من أفضل

الشارات فى أسبانيا) أنا ابن فلان - ولاحترامى الشديد له لا أعلن

الآن عن اسمه - أنا ابنه الوحيد الذى أوصى له بثرواته وأملاكه العريضة، والذى هنا فى العاصمة، تقدم لمنصب كبير، وينتظر قرار الملك الذى سيكون فى صالحه دون شك باستقراء كافة الدلائل، واعتماداً على هذه الصفة وتلك النبالة - ومن واجبي التطرق إليهما بتوسع فيما بعد - تنتظرني مكانة عظيمة أود أن أرفع إليها أصول بريثيوثا المتواضعة وأجعلها مساوية لى وزوجة، أنا لا أطلبها للسخرية منها لأن الحب الذى أكنه لها لا يخامرهم أدنى شعور بالاستهزاء ، بل أريد خدمتها بالطريقة التى تعجبها ، فأرادتها هى إرادتى. ستكون روحى لها بمثابة الشمع الذى تطبع عليه كل ما يحلو لها ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا الختم والإبقاء عليه أبدأ الدهر سيكون مثل المنحوت على الرخام، بصلابته التى تقاوم تواتر الأزمان، لو صدقتما كلامى سأؤصد كافة الأبواب فى وجه أى تردد أو انتظار، أما إذا تطرق إليكما الشك فستظل ربيبتكما تنغص على حياتى ، اسمى كذا - وأخبرهما به - وقد حدثتكما عن والدى. الشارع الذى نقطن فيه وعنوان بيتنا هو كذا وكذا، ولدينا بالطبع جيران يمكن سؤالهم، بل بإمكانكما سؤال من ليسوا لنا بجيران لأننا غير مجهولين ومعروفون فى كل أنحاء المدينة وفى ردهات القصر الملكى ذاته، أحضرت لكما مائة إسكودو ذهبية عربوناً لنيتى الحسنة وفاتحة لما أفكر فى تقديمه لكما بعد ذلك، فمن يجب لا يضمن بماله وضياعه على واهبة الروح.

كانت بريثيوثا تصغى باهتمام بالغ لحديث هذا الفارس الشاب.

ولابد أنها صدقت كل كلمة تفوه بها وفور انتهائه من حديثه اتجهت نحو جدتها قائلة:

- معذرة، يا جدتى، لو سمحت لنفسى بالرد على هذا الصب العاشق.

- لك ما تريدين يا حفيدتى، فأنت أهل لجميع المواقف.  
قالت بريثوثا:

- أنا ، يا سيدى الفارس، رغم كونى غجرية فقيرة، متواضعة النشأة إلا أن خيالى الخصب الموجود هنا بداخل رأسى يحملنى إلى أجواء بعيدة وأشياء عظيمة، أنا لست ممن تحركهم الوعود ولا تضعفهم الهبات ولا تحنيهم العواصف ولا تقض مضاجعهم كلمات الحب المعسولة، ومع أننى سأتم الخامسة عشرة فى سان ميغيل القادم - طبقاً لحساب جدتى - إلا أننى أفكر مثل الطاعنين فى السن وأصل بعقلى إلى أبعد مما تسمح به سنوات عمرى، وهذا مرده للفطرة أكثر من الخبرة، وبهذه وتلك معا أدرك أن نزوات العشق فى المحيين الجدد مثل الشطحات السائبة التى تجعل الإرادة تثب من مكمناها لتتخبط فى غيها وتنساق دون رؤى خلف رغبتها، متوهمة أنها ستدرك النعيم المقيم فى حين أنها ستتلظى بالهموم والأحزان. وعندما تظفر ببغيتها سرعان ما يفتر حماسها ويتراجع لامتلاكها للشىء المرغوب فيه، وربما لو فتحت عينيها على صوت العقل لأدركت حينذاك أنها تبغض ما كانت تتبتل فى محرابه، لقد جعلنى الخوف مما تقدم ذكره شديدة التحفظ لدرجة عدم تصديق أية كلمة

والارتياح فى كثير من الأفعال، أنا لا أملك سوى جوهرة واحدة: العذرية وما تستوجبه من عفة، وهى عندى أعلى من الحياة ذاتها، ومن ثم لا ينبغى التفريط فيها مقابل الوعود أو الهبات لأنها لو أصبحت فى النهاية قيد البيع أو الشراء فقدت ما لها من قيمة، ولذا فلم تسلبها منى المكائد ولا النزوات الطائشة: فأنا أفضل الذهاب سليمة معها إلى القبر - وربما إلى السماء - على جعلها عرضة لخطر الدعس أو العبث من جانب الأشواق المتأججة والخيال الحالم ، يمكن تخيل العذرية - مع الفارق الكبير فى التشبيه الذى ينتقص من قدرها - وردة رقيقة يانعة، لو قطفت من على غصنها الرطيب، فيالسهولة وسرعة ذبولها! يلمسها هذا، وذاك يشمها، وثالث يعبث بأوراقها، وتكون المحصلة: ضياعها بين الأصابع الخشنة القاسية، إذا كنت قادماً ، أيها السيد، من أجل هذه الدرة، فلن تحملها إلا مغلولة بقيد الزواج، إذ لو كان على العذرية الانحناء فلا ينبغى أن يكون إلا لهذا النير المقدس، لأنها لن تصبح مفقودة عندئذ، بل مستخدمة فيما خلقت من أجله وفيما أحلّه الرب من بهجة، إذا كنت تنوى الزواج بى، سأكون خليلتك ، لكن هذا لن يتم إلا بشروط واختبارات مسبقة: يجب التأكد أولاً مما إذا كنت بالفعل ذلك الشخص الذى تدعيه، وبعد التحقق من هذا عليك ترك منزل والديك والانتقال للعيش معنا فى مضاربنا، وارتداء ملابسنا، والدراسة سنتين فى مدارسنا، وخلال هذه الفترة ستعرفنى أكثر، كما سأعرفك ، فى نهاية السنتين، إذا أعجبتك خصالى وأعجبتنى خصالك أصبح زوجتك ، وإلى أن يحين

ذلك الوقت يجب أن تعاملنى كأخت لك، وأنا من جهتى سأخدمك بعينى، ضع فى اعتبارك أن فترة الخطبة هذه يمكن أن ترد إليك رشدك المطلوب حالياً - أو المشوش، على الأقل - وتجعلك تولى الأدبار مما تتعقبه الآن بإصرار ، وكما يقال: فإن استرداد الحرية السلبية بتوبة نصوح يعفى من الذنوب الثقال، إذا كنت بهذه الشروط مستعداً للتطوع جندياً فى ميليشياتنا، فالقرار لك، أما الإخلال بواحد منها فيعنى الفراق بينى وبينك.

بُهِت الفتى وأطرق إلى الأرض فى ذهول محاولاً التفكير فيما سيجيب به، ولما لاحظت بريثوثا ذلك واصلت حديثها قائلة:

- التفكير فى هذه المسألة الخطيرة يتطلب وقتاً طويلاً لا يتسع له المقام، عد إلى المدينة وتدبر على مهل ما يناسبك، وعندما تستقر على رأى يمكنك مقابلتى فى هذا المكان أثناء ذهابى إلى مدريد أو عدوتى منها.

أجاب الفتى المهذب قائلاً

- عندما أنعمت على السماء بنعمة حيك عقدت العزم ساعتها على الإتيان بكل ما يعنك، لكن لم يدر بخلدى إطلاقاً أنك ستقدمين على طلب شىء كهذا، ومع ذلك، ولأن هواى يوافق ما تمليه إرادتك، بإمكانك اعتبارى عجزياً من هذه اللحظة، وبوسعك اختبارى كافة ما شئت وستجديننى على العهد قائماً فى ثيلت، كما يمكنك من الآن تحديد موعد تغيير لباسى هذا لأننى بصدد الذهاب إلى «فلانديس» (Flandes)<sup>(١٩)</sup> وسأنتهز الفرصة لتغيير مسار رحلتى التى ستبدأ

بعد ثمانية أيام دون علم والدى .وسأقضى هذه الأيام فى المدينة دون إثارة الشبهات، وسأرحل مع الذاهبين إلى الحرب لكننى سأدعهم فى الطريق وأغير وجهتى ، كل ما أرجوه منك خلال هذه الفترة - إن جاز لى التجاسر وطلب شىء منك - هو التعجيل بالسؤال عنى وعن أهلى اليوم أو غدا ، وعدم الذهاب بعد ذلك لأبعد عن مدريد لأنى أخاف أن تواتيك فرصة عرض آخر فتنصرفين عنى وتركيننى أزرع الحشرات.

- أما هذا فلا ، يا سيدى العاشق - ردت بريثيوثا - أعلم أننى مثل الطائر الذى يريد التنعم بحريته بعيداً عن طوفان الغيرة الحمقاء، وعليك أن تفهم أننى لست بضاعة تباع وتشتري فى الأسواق، ومن ثم فأول درس يجب أن تعيه هو ضرورة الثقة المطلقة بى، فالمحبون الذين يستهلون سيرتهم بالغيرة إما أن يكونوا سُدُجاً أو مغفلين بسطاء.

علقت الغجرية العجوز على كلام حفيدتها بقولها:

- إبليس نفسه هو الذى يسكن جوانحك أيتها الفتاة: تتفوهين بأشياء لاتخطر ببال طالب علم فى شلمنقة ! تتكلمين بعمق فى الحب والغيرة والثقة بالآخر: ألا ترين أنك بهذا تدفعيننى إلى الجنون وتجعليننى كالطرشاء فى الزفة أو مثل شخص ممسوس يتشدد باللاتينية دون أن يعرفها؟

- صه ، يا جدتى ، واعلمى أن ما سمعته منى حتى الآن مجرد سفاسف وقشور ، مقارنة بما ينطوى عليه صدرى من عظام الأمور.

ما سمعه الفتى كان بمثابة إضافة المزيد من الحطب إلى النيران المستعزة فى قلبه، تواعدا فى النهاية على اللقاء بالمكان ذاته بعد ثمانية أيام: لكى يخبرها بعدها بقراره النهائى، ولكى تتأكد خلالها من المعلومات التى أدلى بها عن نفسه، أخرج الفتى كيساً من الاستبرق وأعطى المائة إسكودو المشار إليها للعجوز، لكن بريثوثا طلبت منها ردها إليه وعدم قبولها بأى شكل من الأشكال، فما كان من العجوز إلا أن سلقتها بلسانها الحاد على النحو التالى:

- «نقطينى» بسكوتك، يا صبية، فأبلغ دليل على استسلام هذا السيد هو تنازله عن سلاحه ، واليد العليا تحت أى ظرف من الظروف خير من اليد السفلى، وهى علامة ناصعة على أريحية صاحبها وسخائه، ولا تنسى المثل القائل: «إلى الله أبتهل، وبالعمل الشاق أشتغل» هذا بالإضافة إلى أننى لا أريد أن تفقد العجريات بسببى شهرتهن التى اكتسبناها طوال قرون عديدة فى أنهن جشعات ونهازات للفرص، أتريدين منى رفس مائة إسكودو من الذهب الخالص قد يستعملها الموسرون فى تطريز تنورة لا تساوى ريالين وأجدها ماثلة أمامى وكأن «طاقة» القدر قدفتحت لى ؟ وإذا سقط لجرم ما واحد من أبنائنا أو حفدتنا أو عشريتنا فى يد العدالة، فهل سيشفع له القاضى وكاتب العدل كما ستشفع هذه النقود عندما تصل إلى كيسيها ؟ لقد كدت، لثلاث مرات، على وشك امتطاء حمار فى طريقى إلى الجلد، على ثلاث جرائم مختلفة، وخلصتني من الأولى «فازة» من الفضة، ومن الثانية عقد من اللؤلؤ، ومن الثالثة أربعون



ريالاً غيرتها أنصافاً وخسرت فى التغيير عشرين ريالاً أخرى أخذوها عملوة، يا حفيدتى، إننا نمارس مهنة محفوفة بالمخاطر ، مفعمة بالعثرات والمكدرات، ولا توجد دفاعات تحمينا وتقلينا من عثراتنا سوى أسلحة «فيليب» العظيم التى لا تقهر: فبواسطة «دبلون»<sup>(٢٠)</sup> ذى وجهين يبش لنا نائب القاضى العبوس وكل زبانية الموت الذين يكشرون لنا عن أنيابهم ويسلخون جلدونا ويبتزوننا أكثر من قُطاع الطرق، ومهما شاهدونا حفاة وعراة مترعين بالنواب لا يعتبروننا أبداً فقراء، فهم يقولون إننا مثل صديرى سكان بلمونت من الجباتشو<sup>(٢١)</sup> : ممزق وملطخ بالشحوم لكنه مكتظ بالنقود.

- كفى ، يا جدتى ، فأنت لديك من الأسباب للاحتفاظ بالنقود ما يفوق الأباطرة ، احتفظى بها، مع تمنياتى بحسن الاستفادة منها. ادفنيها فى مكان آمن مع الابتهاال للرب بالأ تعود لرؤية ضوء الشمس ثانية، وألا تدعوك ضرورة لاستخراجها ، أما بالنسبة لزميلاتى فأرى أن الواجب يقتضى إعطاءهن شيئاً، فقد تحملن طول الانتظار ، ولا بد أنهن غاضبات.

- لن يروا وميضها - ردت العجوز بحدة - سيتكرم هذا السيد المعطاء بتفتيش حافظته علّه يجد عملات فضية أوزعها عليهن، فهى وإن كانت قليلة إلا أنها ستدخل السرور عليهن جميعاً.

- نعم معى - رد الفتى العاشق.

استخرج من حافظته ثلاثة ريالات قامت العجوز بتوزيعها على العجريات الثلاث ففرحن بها فرحاً يفوق حبور ممثل كوميدى انتصر

على منافس له وكافأه الجمهور بالهتاف والتصفيق الحاد .  
لقد اتفقا - باختصار ، وكما وردت الإشارة - على اللقاء بعد  
ثمانية أيام، وعلى تسمية الفتى العاشق: «أندريس كابييرو» (٢٢) ،  
إذ يوجد من بين العجر أيضاً من يتحلى بهذا اللقب.

لم يجرؤ أندريس (وسنشير إليه من الآن فصاعداً بهذا الاسم)  
على معانقة پريثيوثا ، واكتفى بتشجيعها بروحه - إن جاز لنا  
استخدام هذا التعبير - ثم يمّم وجهه شطر مدريد وتبعته العجريات  
وهن فى غاية السرور ولدماثة الفتى اهتمت پريثيوثا - من منطلق  
الاستطاف لا الحب - بالتحقق من المعلومات التى ساقها عن نفسه،  
دخلت مدريد، وبعد اجتيازها لعدة شوارع رآها الوصيف الشاب  
الذى أهدها القصيدة والإسكودو فاتجه نحوها ونادى عليها:

- أنعم الله عليك بالخير، يا پريثيوثا: هل قرأت القصيدة التى  
سلمتها لك منذ عدة أيام؟

- قبل أن أجيب بنعم أو بلا ، أستحلفك بحياة من تحب أن  
تخبرنى بالحقيقة.

- أحلف بكل الإيمان المغلظة أننى ساكون صادقاً ولن أخفى عنك  
شيئاً ولو كلفنى الصدق حياتى.

- ما أرى معرفته يتضمنه السؤال التالى: هل أنت، حقا، شاعر؟  
- لو كنت كما تقولين، فمن حسن طالعى، أود أن تعرفى أن لقب  
الشاعر لا يستحقه إلا القليلون فقط، وأنا - بحمد الله - لست منهم،  
بل مجرد هاوٍ للشعر ، ومع هذا أنا على استعداد لبذل قصارى

الجدد حتى لا تلجئى لغيرى، ما أعطيتك لك هو من نتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضا، ورغم هذا لست شاعرا ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سىء لهذه الدرجة؟ - سألت بريثوثا:

الجدد حتى لا تلجئى لغيرى، ما أعطيتك لك هو من نتاج قلمى وما سأقدمه لك الآن أيضا، ورغم هذا لست شاعرا ، لا قدر الله.

- هل الشاعر سىء لهذه الدرجة؟ - سألت بريثوثا:

- ليس سيئاً - رد الوصيف الشاب - لكن ملكة الشعر الخالصة لا تتوفر لدى رغم إجادتى. فالشاعر الحق يصنع من اللغة جواهر نفيسة، ولا يهبط عليه الإلهام على مدار الساعة، ولا يعرض موهبته على الرائح والغادى، بل فى الوقت والمكان المناسبين، الشعر، يا صغيرتى ، مثل أنسة حسناء، طاهرة الذيل، عفيفة، حسيقة، حادة ومحترجة عن العيون، الشعر توأم للوحدة: ترفقه عنه الينابيع، تسلية المروج، تمحو غضبه الأشجار، تبهجه الأزاهير، وفى النهاية يتلذذ به، ويعب من صفائه كل طاعم وشارب.

- أيتلى الشاعر بهذه الصفات كلها، مع أنهم ينعتونه بالفقر

والميل إلى التسول؟

- فيما مضى كان الوضع مختلفاً تماماً، فآنذاك لم يكن يوجد شاعر واحد فقير وبل يعيشون جميعاً هانئين فى كنف عبقرية الشعر التى لا تتاح إلا لعددٍ من المصطفين لكن ما الذى دفعك لطرح هذا السؤال؟

- دفعنى إليه علمى بأن كافة الشعراء معدمون، ولذا تملكتنى

الدهشة عندما عثرت على ذلك الإسكودو الذهبى قابلاً فى طيات قصيدتك ، لكن بعد أن عرفت منك الآن أنك لست بشاعر وإنما مجرد هاوٍ فإننى أرجع هذا التصرف من جانبك لاحتمال غناك، وإن كان هذا موضع شك أيضاً لأن هويتك فى تأليف القصائد كفيلة بإنضاب معين أية ثروة قد تكون لديك، إذ لا يوجد شاعر - حسبما يقال - يعرف الحفاظ على ما لديه من أموال وعروض، ناهيك عن الحصول على ما لا يمتلكه.

- أنا لست من هؤلاء : أقرض الشعر ولست غنياً ولا فقيراً، أى بين بين، كحال أهل جنوة مع ضيوفهم: لا هم بالبخلاء، ولا بالكرماء، ومن هنا فبوسعى تقديم إسكودو أو اثنين لمن أريد ، مدى يدك - أيتها اللؤلؤة الغالية ، لتأخذى القصيدة الثانية ومعها الإسكودو الثانى، ولا تشغلى بالك بما إذا كنت شاعراً من عدمه، أريد فقط أن تكونى على ثقة من أن الذى يفعل هذا معك يتمنى لك كل ما فى هذا العالم من خير.

أعطاها ورقة مطوية، فتحسسستها بريثوثا وعثرت على إسكودو بداخلها، قالت له:

- لابد أن تتمتع هذه الورقة بعمر مديد لأن بها روحين: روح الإسكودو وروح الشعر، ليعلم السيد الوصيف إننى لا أحب أرواحاً كثيرة معى إذا لم يسترد الأولى فلا داعى للحنن إن ردت إليه الثانية، يسرنى التعامل معك كشاعر لا متصدق، وبهذا الشكل ستمتد صداقتنا وتدوم، فالحياة ممكنة بدون الإسكودو مهما كانت

الحاجة إليه، لكنها شبه مستحيلة إذا خلت من الرومانث.

- لك ما تريدين ، احتفظى بالروح الكامنة فى الورقة وناولينى الإسكودو لأننى عازم على الاحتفاظ به - بعدما لمستته يدك - كرقية لسنوات عمرى الباقية.

أخرجت بريثيوثا الإسكودو من الورقة ودست القصيدة فى جيبها لأنها لم ترد قراعتها فى الشارع، ودعها الوصيف الشاب ومضى فى طريقه مسروراً، معتقداً من حديثها الودى أنها وقعت فى غرامه، مضت العجرية فى طريقها دون أن تتوقف للرقص فى أى مكان لأنها كانت متجهة للبحث عن منزل والد أندريس، وبعد وقت قصير وجدت نفسها فى الشارع الذى تبحث عنه: مشت حتى منتصفه ورفعت رأسها فرأت - حسب الوصف - شرفات من الحديد المذهب، كما شاهدت بداخل إحداها فارساً ذا مهابة ووقار فى الخمسين من العمر يرتدى ملابس حربية مزدانة على الصدر بشارة ملونة للصليب، التقت نظرتها بنظرة الفارس الذى نادى عليهن:

- اصعدن ، يا فتيات ، وستجدن ما تطلبن من الصدقات.

دخل الشرفة، على صوته، ثلاثة فرسان آخرون بينهم العاشق أندريس الذى امتقع لونه فور رؤيته، «بريثيوثا» وكان على وشك فقدان الوعى للمفاجأة غير المتوقعة التى اصطدمت بها عيناه ، سعدت العجريات فميا عدا العجوز التى فضلت البقاء فى الدور الأرضى للاستفسار من الخدم عن حقيقة أندريس.

عندما دخلت العجريات القاعة وجدن الفارس المسن يقول للأخرين:

- لاشك أن هذه هي الغجرية الفاتنة التي تجوب مدريد ويتحدث عنها الجميع
- إنها هي - أجب أندريس - أجمل مخلوقة رأتها العين.
- هذا ما يدعونه - قالت بريثوثا التي استمعت لحوارهما السابق أثناء دخولها
- لكنهم مخدوعون في نصف الحقيقة على الأقل: جميلة نعم، أما رائعة الجمال - كما يقولون - فهذا محض افتراء.
- وحياة ابني «دون خوانيكو»<sup>(٢٢)</sup> - رد الفارس العجوز - أنت في الحقيقة أكثر جمالاً من الوصف وأشد فتنة.
- ومن يكون «دون خوانيكو» هذا؟ - سألت بريثوثا.
- هذا الفتى الواقف إلى جوارك - أجب العجوز
- لقد حسبت أن صاحب السعادة يحلف بحياة طفل لا يتعدى الثانية من العمر، ياله من «دون خوانيكو» ويالطوله الفارع! أظنه الآن متزوجاً ، وإن لم يكن فلن تمض - كما تشير خطوط جبهته - ثلاث سنوات حتى يكون كذلك وعلى هواه، هذا إذا لم يطرأ عارض جديد خلال هذه المدة يجعله يغير رأيه أو يفقد هواه.
- أتفقه الغجرية أيضاً في لوحة الحظوظ؟ - سأل أحد الحاضرين.
- كانت الغجريات الثلاث اللاتي جنن معها قد انتحرن - أثناء ذلك - ركناً من الصالة وأخذن في التهامس ، ملتصقات الرعوس - حتى لا يسمعهن أحد، قالت كريستينا لزميلتها:
- ألا تعرفان هذا الفارس؟ إنه الذي أعطنا الريالات الثلاثة صباح اليوم.

- إنه هو - ردت الأخريات - ولكن حذار من التفوه بكلمة أو التطوع بالفتنة عليه إذا لم يقدم أو لعل ذلك: ربما يكون رغباً في التستر.  
بينما كان هذا الحديث الجانبي يدور بين الفتيات الثلاث أجابت بريثوثا على سؤال الحظوظ قائلة:

- ما أراه بعيني أحمقه بإصبعي: أرى أن السيد «دون خوانيكو» متيمماً بعض الشيء، مندفعاً وعجولاً، متسرعاً في الوعد بأشياء تبدو مستحيلة، أتضرع إلى الرب ألا يكون كذوباً لأن أفة الكذب مفسدة لكل شيء، إنه يتأهب للقيام برحلة إلى مكان بعيد جداً، واحد يفكر في الطعم والأخرفيمين سيسرجه له، العبد يرتب والرب يدبر، ربما يظن أنه ذاهب إلى Onez فيجد نفسه في Gambon (٢٤).

- لقد أصبت كبد الحقيقة في كثير مما قلته عني، لكنك جافيتها بإدعائك كذبي، لأنني أتحرى الصدق في جميع المواقف مهما كانت العواقب. أصبت في خبر سفرى لأنني بالفعل راحل إلى «فلانديس» - خدمة للرب - خلال أربعة أو خمسة أيام، ومع أنك تلقين بظلال الشك على مسار هذه الرحلة إلا أنني أود ألا أصطدم بأية بليّة تعرقل طريقي.

- مهلاً، أيها السيد - ردت بريثوثا - وتوجه إلى السماء بالدعاء لكي تكلل مساعيك النجاح، واعلم أنني لا أفتقه شيئاً فيما يردده لساني، ولا يعد من قبيل الإعجاز إذا تمخض الكلام الكثير عن الإصابة في أمر من الأمور، ما أردت بكلامي السابق سوى تهديتك وإقتناعك بالبقاء مع والديك لرعايتهما في الشيخوخة، فأنا لا أحبذ

عدوى الرواح إلى فلاندرس والعودة منها، لاسيما للشباب الغض من أمثالك، اصبر حتى تشب قليلاً عن الطوق لتتمكن من تحمل أعباء الحرب ومخاطرها، ولديك منها ما يكفى وزيادة وأنت قايع فى أعماق دارك: فمعارك الهوى تحدد بك من كل جانب ، انهدأ ، أيها المفرغ المستثار، وعليك بالنظر أولاً فى أمر زواجك وفى إعطائنا صدقة، حباً فى الله وفداء لك، لا يساورنى أدنى شك فى طيب منبتك. ولقو خاب ظنى واجتمع إلى عراقة الأصل صدق الطوية لغنيت ساعتهأ ابتهاجاً بالهزيمة فيما وصمتك به.

- أخبرتك من قبل - قال «دون خوان» أو «أندريس كاباييرو» المنتظر - إنك محقة فى كل شىء فىا عدا هاجس الخوف من عدم صراحتى وسلامة نيتى، وأنت بلا شك مخدوعة فى هذا المنطق ، كلمتى فى الخلاء أحافظ عليها - دون حاجة إلى توجيه من أحد - فى المدينة أو فى أية بقعة أخرى على ظهر الأرض: إذ لا يمكن لمن تخالط روحه أفة الكذب الادعاء للفروسية ينسب . سيعطيك والذى صدقة تقريباً إلى الله ومحبة لى، فما كان معى هذا الصباح قدمته لبعض السيدات، ولروعة جمالهن وعذوبة ألسنتهن لاسيما إحداهن - لم يبق فى كيسى فلس واحد.

عندما سمعت كريستينا هذا قالت لزميلتها:

أعدم روحى لو لم يكن يقصد ثلاث الريالات التى وزعها علينا هذا الصباح!

استنتجك فى غير محلّه - همست واحدة من الاثنتين - لأنه تحدث



عن سيدات، ولسنا كذلك، وبما أنه يتحرى الصدق فيما يقول - كما سمعنا - فإنه يعنى ما قاله.

\* إنها كذبة بيضاء كما يقولون - ردت عليها كريستينا - : لا تضر أحداً وذات نفع لناطقها، ومع هذا لا أرى أنهم سيجودون علينا بفلس إلا إذا طلبوا منا الرفض.

سمعت الغجرية أثناء ذلك ونادت:

\* هيا ، يا حفيدتى ، لقد أمسى النهار وأمامنا الكثير مما يجب عمله وقوله.

\* ماذا هناك، يا جدتى؟ ابن أم ابنة؟

\* إنه ذكر جميل الخلقة، تعالى وستستمعين إلى حقائق مدهشة.

\* تضرعى إلى الخالق ألا أموت من شدة الانفعال.

\* ستتحدث على مهل وبكل روية، لقد كان وضعا طبيعيا حتى

الآن، والأمير الوليد مثل الذهب(٢٥).

\* هل وضعت إحدى السيدات مولوداً؟ - سأل والد أندريس.

\* نعم يا سيدى، أجابته العجوز - لكن هذا الأمر سرى للغاية ولا

يعرف خبيثته إلا أنا وحفيدتى بالإضافة إلى شخص آخر لا يمكن إمطة اللثام عنه.

- ولا نريد معرفة شيء عنه هنا - تدخل أحد الحاضرين - تعيسة

تلك ومحزونة التى تضع على ألسنتكن سرها وتستجير بحماكن لشرفها.

- لسنا جميعاً سيئات - ردت پريثيوثا بانفعال - وربما توجد من

بيننا من هي أحفظ للسر من أطول رجل بهذه القاعة. نحن لا نستجدي ، ولسنا لصات أو متسولات.

- لا تغضبى ، يا پريثيوثا - قال والد أندريس - فأنا لا أعتقد أن مثلك يحوى بين جنبيه مثقال ذرة من سوء، وجهك خير دليل على حسن طويتك ، أستحلفك بحياتك أن ترقصى لنا قليلاً مع زميلتيك ، فلدى هن دبلون من الذهب لا يستحقه أحد غيرك.  
قالت العجوز فور سماعها لهذا العرض المغرى:  
- هيا ، يا بنات ، تحزمن وأمتعن هؤلاء السادة.

أخذت پريثيوثا الصناجات ، والتفت حولها زميلاتها وانتظمن فى الرقص، كانت أربطة الأحزمة المتتالية على خواصرهن تتطاير وتثنى تبعاً لدورانهن الرشيق حول أنفسهن ، وخلف أرجلهن كانت تجرى ملتاتة عيون الحاضرين، خاصة عيني أندريس اللتين كانتا معلقتين بقدمى محبوبته وكانهما تبصران مركز فردوسه، لكنهما سرعان ما تعكرتا وتحولت الجنة إلى جحيم عندما سقطت فى إحدى اللفتات السريعة، القصيدة التى أعطاهها الوصيف لپريثيوثا فتلقفتها يد قاسية لاتعبأ بمشاعر العجريات وقرأت على الفور ما يلى:

- عندما تقرع «پريثيوثا» الدف

وتجرح الهواء الخامل بنغمه العذب،

تنثال اللالىء من بين يديها،

ومن فمها تنسكب الأزاهير.

من حلاوة أعمالها الخارقة،

المفعمة بالصفاء والعفة والحيوية،  
تصاب الروح بالذهول، الرزانة بالجنون،  
وتطاول شهرتها السماء العالية.  
بأدق شعرة من جدائلها معلقة  
ألف مهجة ، وتحت قدميها يلقي  
«كيوبيد» بسهامه مستسلماً .  
عمياء وبشموسها الجميلة  
تضيء ممالك الحب وتمسك بقواعدها،  
وما أظن أن جعبتها فرغت من المعجزات.

- تفوح من هذا السونيت رائحة شاعر أصيل - قال الذى قرأه.  
- ليس شاعراً - ردت بريثيوثا - بل وصيفاً فى غاية التهذيب  
والدمامة.

(أنعمى النظر يا بريثيوثا فيما جرى على لسانك وفيما سينطق  
به لأنه ليس ثناء على الوصيف بل رماً ماضية تخترق حشاشة  
قلب أندريس، إذا كنت لا تصدقين، يا صبية، ارجعى رأسك إذن  
وستجدينه طريحاً على كرسى، تدور به الأرض، يتصبب عرقاً كعرق  
من يعانى سكرات الموت، ألم تضعى فى اعتبارك ، يا أنسة ، أنه  
يحبك لدرجة الجنون، وأن أى تهاون - ولو طفيف - من جانبك يقض  
مضجعه ويصيبه فى مقتل! وتقدمى منه بضع خطوات وأسرى فى  
أذنه بكلمات موجهة مباشرة إلى القلب لكى تعيده من إغماؤه ،  
احضرى كل يوم سونيتات فى إطرائك وسترين شدة وقعها عليه).

وكما أسلفنا القول فهذا بالضبط ما حدث: تملك «أندريس» أثناء سماعه للسونات ألف من خيالات الغيرة المفزعة، لم يكن قد فقد الوعي كلية، بل امتنع لونه بشكل لافت للنظر مما جعل والده يسأل:

- ماذا جرى، يا بني؟ أراك ممتنع اللون وعلى وشك الدخول في إغماءة.

- دعنى - قالت بريثوثا - أسر في أذنيه ببضع كلمات، وسترى كيف يثوب إلى رشده سريعاً.

اقتربت منه، وقالت له محرمة بالكاد شفيتها:

- يالها من بداية رائعة لجرى المستقبل ! يمكنك يا أندريس تحمل عذاب الخنق وأنت لا تقوى على ورقة؟!!

قالت له هذا وأشارت عدة مرات بعلامة الصليب على موضع قلبه ثم ابتعدت ، أخذ أندريس شهيقاً عميقاً ثم زفر ببطء متظاهراً بأن كلمات بريثوثا قد شفته من وعكته.

تلقت بريثوثا، فى النهاية، «دبلون» الذهب فسلمته من فورها إلى صويحباتها وطلبت منهن توزيعه عليهن بالتساوى.. أصر والد أندريس على معرفة كلمات الرقية التى استخدمتها فى علاج ابنه، وأبدى رغبته فى تدوينها، ردت عليه قائلة إنها ستطلعهم عليها بكل سرور ، لكنها حذرتهم من عدم أخذ كلماتها - التى قد تبدو تافهة - على محمل السخرية لأن فائدتها فى الوقاية من أوجاع القلب ودوار الرأس مؤكدة. وبعد هذا التحذير رددت على مسامعهم الآتى:

أيتها الرأس، أيتها الرأس،  
تعامسكى، لا تنزعزعى،  
وانستمدى دعامتى  
من الصير اللونعى.

انشدى

الثقة

الجميلة.

لا تميلى

نحو الخواطر الدنيئة

ستبصرين رؤى

تطاول المعجزات

الرب فى المقدمة

و«سان كريستوبال» من الجبابرة

- بنصف هذه الكلمات - أردفت بريثيوثا - مع الإشارة بعلامة  
الصليب عدة مرات على محل قلب الشخص المصاب بدوار الرأس  
ينهض سليماً معافى كالحصان.

بهتت العجوز عند سماعها كلمات الرقية وفهمها لخدعة، كما  
اعترى أندريس النهول من قدرتها الفائقة على التصرف وعبقريتها  
الحادة، تركت لهم بريثيوثا السونيت ولم تطالب به حتى لاتزيد الطين  
بلية: إذ كانت تدرك بفطرتها - دون تعلم - ما يعنيه إذكاء نيران الغيرة  
فى نفوس المحبين الخلنعيين..

استأذنت العجريات ، وعندما هممن بالانصراف قالت بريثوثا  
لدون خوان:

- جميع أيام هذا الأسبوع مباركة للسفر، ولا يوجد بينها يوم  
واحد مشؤم، تنتظر حياة عريضة، لذيذة ومفعمة بالحرية، فعمل  
بالرحيل قدر ما تستطيع طالما قررت اتخاذها.

- حياة الجندية لا تتسم بالحرية المطلقة كما تظنين - رد عليها  
«دون خوان» - بل إن أهم بنودها يكاد مقصوراً على ما فيها من  
قيود، ومع هذا سأعمل بمشورتك.

- الأفضل - قالت بريثوثا - الاعتماد على ما يهديه إليك تفكيرك ،  
تصحبك السلامة - زهاباً وعودة، لأن مثلك يستحقها.

أدخلت الكلمات الأخيرة السرور على أندريس، كما مضت  
العجريات ووجوهن مشرفة بالبهجة .. قمن بعد ذلك بتبديل «دبلون»  
الذهب إلى وحدات نقدية أصغر ووزعنها بيتهن بالتساوي، باستثناء  
العجوز التي تزيد حصتها دائماً بمقدار النصف عن الأخريات نظراً  
لكبر سنها ولأنها ضايطة إيقاع أنشطتهن حتى ما يتعلق منها  
بالاحتياال والخديعة.

وفى صبيحة أحد الأيام ظهر «أندريس كايبيرو» - بمفرده ، دون  
خادم - على ظهر بغلة مكتراة فى مكان اللقاء الأول، استقبلته  
«بريثوثا» وجدتها - اللتان كانتا تنتظرانه هناك، حسب الاتفاق -  
بحفاوة بالغة، استحثهما على اقتياده إلى وكر الأخوية قبيل أن يتقدم  
النهار ويتنبه رفاقه فى السفر لغيابه فيجدوا فى طلبه . رجعتا معه ،

وبعد وقت قصير تراعت لهم الأكوخ الصفيح.

أدخلنا أندريس أكبر كوخ فى المعسكر، وعلى الفور حضر لرؤيته حوالى اثنى عشر شاباً رشيقيًا كانت العجرية العجوز قد أبلغتهم نبأ الوافد الجديد الذى سينضم إليهم، لكنها لم تنبس ببنت شفة عن السر الكامن فى صدرها وتحافظ عليه - ومعها بريثيوثا وأندريس - بدهاء وحنكة منقطعى النظير، عندما شاهدوا البغلة انبرى أحدهم قائلاً:

يمكننا بيع هذه فى سوق الخميس بطليطلة.

أما هذا فلا - رد أندريس - فهى مكتراة وسيتعرف عليها بسهولة كل البغالين الذين يجوبون أسبانيا.

- يالسلامة نيتك ، يا سيد أندريس ! - أضاف غجرى آخر - لو كانت هذه البغلة تحمل جميع العلامات التى يمكن اختراعها إلى يوم القيامة فباستطاعتنا تغيير شكلها بحيث لا تتعرف عليها أمها التى ولدتها أو صاحبها الذى رباها.

- ومع هذا - رد أندريس - ينبغى هذه المرة تنفيذ ما أراه ، ألا وهو قتلها ودفنها بمكان آمن لا تظهر فيه حتى عظامها.

تدخل عندئذ غجرى ثالث قائلاً:

- ذنب عظيم! أتزهق روحاً بريئة؟ لا يقول بمثل هذا الصالح أندريس، بل يفضل بعمل شئ آخر: يتأملها جيداً، على مهل، حتى تنطبع صورتها وكل علاماتها فى ذاكرته، وبعد ذلك يتركها لى، ولو عرفها بعد ساعتين من الآن فلتنبج على الكلاب مثل زنجى أبوق.

- مارلت أصر - قال أندريس - على ضرورة مغادرة البغلة للحياة  
مهما اجتهدتم فى سوق التأكيدات بتغيير هيئتها، أخاف اكتشافها  
إذا لم يوارها التراب. لو كنتم تفعلون هذا طمعاً فيما ستريحونه من  
وراء بيعها فأننا لم أت عارياً تماماً(خاوى الوفاض) إلى هذه الأخوية  
بحيث لا يمكننى تقديم ما يزيد على أربعة أمثال ثمنها رسم  
دخول(٢٦) إلى مضاريكم.

- إذا كان هذا ما يريده السيد أندريس - قال أحدهم - فلتمت  
المسكينة إذن دونما ذنب أو جريرة، ويعلم الله مدى أسفى على  
مصيرها الظالم، فهى ما تزال غضة فتية: لم يذهب نور بصرها  
(وهذا شئ غير معتاد فى البغال المخصصة للإيجار) رغم غشيانها  
المستمر للطرق، ولم تظهر على خاصرتها أية بثور أو تقرحات تحت  
المهمازين.

أجلوا موت البغلة لحلول الليل، وفيما بقى من النهار أقاموا  
احتفالاً بمناسبة تعميد أندريس عجرياً : أخلوا أفضل كوخ عندهم،  
ونظفوه من المخلفات ثم زينوه بالأغصان ، ونباتات السعد العطرة،  
أجلسوا أندريس على نصف جذع شجرة سديان وهو يمسك مطرقة  
بأحدى يديه ، وبالأخرى كماشة، وعلى نغمات دفن شرع فى قرعهما  
عجريان جعلوه يثب «متشقلبا» مرتين فى الهواء، قاموا بعد ذلك  
بتعرية أحد ذراعيه ورسموا عليه وشماً خفيفاً بنبتة من شجر الزيتون  
ثم لفوه بشريط جديد من الحرير.

شهدت بريثيوثا جميع وقائع الاحتفال بصحبة عجريات أخريات -



شابات وعجائز - كان البعض ينظر إليه مفتوناً والبعض الآخر بحب  
وشغف، ذلك لأن وسامة أندريس كانت كفيلة بسحر ألباب الجميع  
حتى العجريات.

عندما انتهت مراسم الاحتفال تقدم عجرى طاعن فى السن وأخذ  
بريثوثا من يدها ثم وقف معها قبالة أندريس وألقى بالكلمات التالية:  
- هذه الفتاة ، التى تعد بحق أيقونة الجمال العجرى فى طول  
البلاد وعرضها، نقدمها لك كزوجة أو صديقة، وفى كلتا الحالتين لك  
عليها ما شئت من السلطان، هذا لأن الحرية المطلقة لحياتنا لا تعبأ  
بأغلال التصنع أو المراسم والطقوس المضجرة... تأملها جيداً ،  
وانظر فيما إذا كانت تعجبك ، إذا رأيت فيها شيئاً لا يروقك فأليك  
عنها واختر غيرها من بين الحاضرات هنا، من تختارها سنعطيتها  
لك، لكن يجب أن تعلم أن التى سيستقر عليها رأيك الآن لا يمكنك  
استبدالها بعد ذلك أو الجمع بينها وبين أخرى، متزوجة كانت أم  
أنسة، نحن نحافظ على قانون الصداقة ولا نتخطاه: لا يرتع أحدنا  
فى حمى غيره، ونعيش - بهذا الشكل - متخففى الكواهل من وباء  
الغيرة البغيض. بيننا - رغم انتشار غشيان المحارم - لا توجد حالة  
خيانة واحدة. لا نذهب للعدالة طلباً للقصاص عند اكتشاف خيانة  
الزوجات أو الصديقات لأننا القضاة والجلادون: نقتلهن دونما عناء  
وندفن جثثهن فى الجبال والفلوات مثل الحيوانات الضارة، مطمئنين  
لعدم سعى قريب للأخذ بثأرهن أومطالبة الآباء بدمائهن، وتحت وطأة  
الخوف من هذا المصير يتوخين العفة، ونعيش نحن بالتالى - كما

سبق وذكرت - مطمئنين مرتاحى البال، قليل مما نملكه ليس مشاعاً بين الجميع ، وفى مقدمته تأتى الزوجة والصديقة، لا يوجد بيننا طلاق أو انفصال اللهم إلا ما تحتمه الشيخوخة أو الموت، من لديه امرأة عجوز، بإمكانه - لو أراد - تغييرها بأخرى تناسب طموحات سنه، بهذه اللوائح والأعراف، وبغيرها، نحافظ على كياننا ونعيش سعداء.. نحن سادة الفيافي والقفار والأراضى المزروعة، الغابات والأحراج، الجبال، الينابيع والأنهار: الجبال تقدم لنا حطبها مجاناً، والأشجار فاكهتها، ومزارع الكروم عنبها، والبساتين خضرواتها، والينابيع ماءها ، والأنهار أسماكها، والقمم العالية ظللها، والعواصف هوائها المنعش، ومن الأحراش والغابات نتزود باللحوم، ومن الكهوف نتخذ البيوت. بالنسبة لنا: اكفهرار السماء وعبوسها نسائم علية، الثلوج راحة من العمل، المطر استحمام، الرعود موسيقى جياشة، العواصف والبروق فنوس قواطع، الأرض الصلبة - بالنسبة لنا - حشيات وثيرة من ريش النعام، وجلودنا المدبوغة بمثابة الدروع الواقية . خفة حركتنا لا تعوقها الجدادج<sup>(٢٧)</sup> ولا توقفها الوهاد ولا تصدها الحوائط، عزائمنا لا تثنيها القيود، لا تفت فى عضدها «لاس جاروتشاس»<sup>(٢٨)</sup>، لا يغرقها الحنق ولا تروضها المهور الخشبية<sup>(٢٩)</sup>. تنتقل فى سهولة ويسر من قول «لا» إلى «نعم» أو العكس، تبعاً للظروف ولما تمليه المصلحة، هذا لأن قيمتنا الحقيقية نستمدّها من الاستشهاد لامن الجلوس على كرسي الاعتراف.. من أجلنا تربي المطايا وحيوانات الجر فى المزارع والحقول، وفى المدينة

تخاط من أجلنا الجيوب فى الملابس، لا يوجد من بين العقبان أو الطيور الجارحة الأخرى من يتفوق علينا فى الانقراض على الفريسة عند سنوح الفرصة، وعلاوة على هذا وذاك نتمتع بالمؤهلات والمهارات العديدة التى تكفل لنا الخواتيم السعيدة: فنحن فى السجن نغنى، على مهر التعذيب نصمت ولا نقول أه، بالنهار نعمل وبالليل نسرق، أو بمعنى أصح: نحرص على ألا يعيش أحد قرير العين مطمئنا على ثروته، لا يتعبنا الخوف من فقدان الشرف ولا يؤرقنا الطمع فى الارتقاء به، لا نأوى قطاع الطرق ولا نبكر إلى المحاكم لتقديم العروضالات، لا نخالط علينة القوم ولا نطلب معروفاً من أحد. نفضل أكواخنا الصفيح ومضاريننا المتنقلة على العيش فى أفخم القصور. لا نقايض ما حبتنا به الطبيعة من جروف عالية وقمم صخرية مثلجة ومروج ممتدة وغابات كثيفة بالحجرات الضيقة حتى لو كانت فى «فلاندس» ذاتها، فى الفلك نحن علماء بالفطرة، ننام غالباً فى الخلاء تحت سماء مكشوفة، نرقب النجوم على مدار الساعة ونعلم ما يخص منها الليل وما يتبع النهار. نشاهد كيف يزوى السحر النجوم ويمحوها من السماء، وكيف تمتد بعده يد الصبح لتبهج الهواء وتبرد الماء وترطب أديم الأرض، ثم تأتى الشمس لتذهب القمم وتمشط الجبال (كما يقول أحد الشعراء)، لا نخشى البرودة عندما تجرحنا بأشعتها المائلة، ولا نرهب الاحتراق بقرصها عندما تتوسط كبد السماء: فأرادتنا واحدة فى مواجهة الشمس أو الجليد، الخصوبة أو الجذب، نحن - باختصار - أناس نعيش من كدنا

وعرقنا، دون الدخول فى متاهة المثل القائل: كئاس أو بحار أو أمور  
سلطانية (سياسية).. لدينا كل ما نريده لأننا نرضى مسرورين  
بماتحت أيدينا ، أخبرتك بكل هذا، أيها الفتى الكريم، حتى تكون  
على علم بما أنت مقبل عليه من حياة وبما يتعين عليك التصرف  
بموجبه ومن خلاله، وأنا لم أقدم لك إلا طرفاً منه وبإيجاز شديد، إذ  
هناك أمور أخرى كثيرة ستكتشفها أنت وحدك بمرور الأيام، وهى لا  
تقل خطراً وأهمية عما سمعته أذنك.

سكت الغجرى العجوز عند هذا الحد، فما كان من المستجد إلا  
الإعراب عن سروره بتلك اللوائح والأعراف الجديرة بالثناء، وعن  
عزمه على ترسّم خطاها واتباع منهاجها القائم على الحكمة والقواعد  
الرشيدة، وعن أسفه العميق لتأخر معرفته لهذا النمط السعيد من  
العيش، كما أعلن تنازله منذ تلك اللحظة عن صفة الفروسية وعن  
الخيلاء بأصوله العريقة، وأنه يضعهما راضياً مختاراً تحت نير هذه  
الحياة أو - بمعنى أصح - تحت القوانين والنظم التى توجه دفتها،  
وذلك فى مقابل إنعامهم عليه بپريثوثا الرائعة التى يتخلى من أجلها  
عن العروض السامقة والإمبراطوريات العريضة.

ردت پريثوثا على ما تقدم بقولها:

- إذا كان هؤلاء السادة المشرعون قد وجدوا فى لوائحهم ما  
يخول لهم تقديمى إليك طالما صادف هذا هوى فى نفسك، فإن قانون  
إرادتى - وهو أقوى من سائر القوانين - يابى على الانصياع لما  
ذهبوا إليه إلا بالشروط التى اتفقنا عليها سوية قبل مجيئك إلى هذا

المكان، ومن ثم يتعين عليك البقاء فى مضاربنا سنتين كاملتين قبل  
ابتنائك بى لكى لا تندم بعد ذلك على نزقك ولا ألعن تسرعى الذى  
غرر بى، الشروط تحطم إسار القوانين، وأنت تعرف جيدا ما اتفقنا  
عليه : لو قبلتها ربما أكون لك وتكون لى ، أما إذا كانت الشكوك  
مازالت تساورك فما هى بغلتك لم تمت بعد ، ولم يمس طاقمها ،  
ونقودك ستعود إليك كاملة غير منقوصة ، أما بالنسبة لغيابك فإنه لم  
يطل ولم يستغرق حتى الآن إلا شطرا من النهار، وما تبقى منه  
يمكنك استغلاله فى التفكير بروية فيما يناسبك.. بإمكان هؤلاء  
السادة تسلميك جسدى، أما روحى ، فكلأ وألف كلا، لأنها ولدت  
حرة وستظل كذلك طيلة الوقت الذى أريده، لو بقيت سأحترمك كثيرا  
وأقدرك، ولن انتقص من قدرك هذا لو قررت العودة، أنا على يقين  
من أن رغبات المحبين تجرى دائما ملتاثة دون عنان حتى يلجمها  
ويكبح جماحها صوت العقل أو خيبة الأمل، وأنا لا أريد أن يكون  
حالى معك مثل الصياد مع الأرنب البرى: يظل يطارده بحمية  
واندفاع حتى يوقعه فى شركه، وبعد أن يمسك به يتركه ليجرى وراء  
آخر يفر منه، غالبية العيون لا تميز عند النظرة الأولى بين صفرة  
النحاس والذهب، لكنها لو أمعنت قليلا فيهما لأدركت الفارق بين  
الأصلى منها والمزيف، وهذا الجمال الرائع الذى تنعنتى به وتدعى  
أنه عندك أعلى من الشمس منزلة وأعلى من الذهب قيمة، ما الذى  
يديرنى أنك لن تراه على القرب وهما، وأنه بعد اللمس مصطنع وغير  
حقيقى؟ أعطيك سنتين لتراجع فيهما نفسك وتختار الأفضل لك، لأن

رباط الزواج المقدس لا فكاك منه إلا بالموت، ولذا يجب أن يكون مسبقاً بوقت كاف يسمح بالنظر ثم إعادة النظر لاكتشاف ما به من عيوب ومحاسن، أنا لست ممن ينصاع للمبدأ الهمجى المتجبر الذى أقره أهلى هؤلاء بشأن الانفصال عن النساء أو معاقبتهن بالطريقة التى تحلو لهم، وبما أننى لا أفكر فى الإتيان بشئ يستوجب العقاب، لا أريد اتخاذ شريك يتركنى وقتما يشاء.

- لديك كل الحق فيما تقولينه يا بريثوثا - قال أندريس معقّباً - وإذا أردت أن أهدى من روعك وأبدد مخاوفك بالهلف على التزام كل الضوابط التى ترينها ولا أخرج عنها قيد أنملة فاخترى نوع القسم الذى تريدين أو أى ضمان آخر وستجدينى رهن إشارتك.

- نادرا ما يفى الأسير بالإيمان المغلظة أو بالعهود التى يقطعها على نفسه لكى يردوا عليه حريته - قالت بريثوثا - وما أظن أن الأمر يختلف بالنسبة للعاشق : إنه، من أجل إشباع رغبته، على استعداد للوعد بأجحة «ميركوريو»<sup>(٣٠)</sup> وأشعة «جويتر»<sup>(٣١)</sup> - كما وعدنى ذات مرة أحد الشعراء - وعلى الهلف بنبع «إستخيا»<sup>(٣٢)</sup>. لا أريد منك إيمانا ولا وعوداً ، يا سيد أندريس، بل ادخار كل هذا لفترة التجربة والاختبار التى سأتولى فيها مهمة الدفاع عن نفسى ضد أية بادرة إهانة من جانبك.

- لك ما تريدين - أجاب أندريس - لكن لى طلباً واحداً عند هؤلاء السادة أصدقائى: إعفانى من ممارسة النشل لمدة شهر على الأقل، لأن ذلك يتطلب - حسبما أعتقد - دروساً كثيرة.

- لا عليك ، يا بنى - قال العجربى العجوز - فنحن سنتكفل بتدريبك التدريب الكافى حتى تصبح مثل الصقر فى المهنة، وعندما تتقنها ستشعر بلذة عارمة وستلعب أصابعك بعد كل عملية نشل تقوم بها ، لا توجد متعة تعدل الخروج صباحا صفر اليدين والعودة ليلاً محملاً بالعديد من الأشياء.

- قد يعود البعض ولا يحمل على ظهره سوى آثار السياط، كما شاهدت - قال أندريس.

- نحن لا نلهو ولا نلعب - رد العجوز - ، وكل نشاط فى هذه الحياة محفوف بجملة من المخاطر، وما يخص النشل منها يتمثل فى التجديف على السفن والجلد، وأحيانا الشنق، لكن هذا لا يعنى التوقف عن العمل، إذ لا يعقل أن تكف السفن عن الإبحار لأن إحداها تعرضت للغرق أو داهمتها عاصفة هوجاء، وهل يقلع الناس عن الانخراط فى سلك الجندية لأن الحروب تأكل الرجال والخيول؟ قدرنا يزداد علواً كلما كثرت آثار سياط العدالة على ظهورنا، فهى عندنا أفضل من النياشين وشارات الفروسية على الصدور... خلاصة القول إن كراهيتنا الشديدة للجلد على الظهر أو لضرب صفحة المياه بالمجاديف لاتدفعنا، ونحن فى ريعان الشباب، إلى النكوص على أعقابنا يائسين عند ارتكاب الجرائم الأولى. استرح الآن فى العش تحت أجنحتنا يا بنى، وثق تماما أننا لن نطلقك للطيران إلا فى الوقت المناسب وإلى حيث لا تعود إلا والفريسة بين مخالبك ، وكما أخرتك أنفا: لن تقاوم - من فرط المتعة واللذة - لعق

أصابك بعد كل سرقة.

- ويمثابة التعويض من جهتي - قال أندريس - عما كان بإمكانى سرقة خلال فترة التدريب ، أود توزيع مائتي إسكودو على كافة الموجودين بالمضارب.

فور انتهائه من هذا التصريح اقترب منه شباب الغجر وحملوه على الأعناق وأخذوا يهتفون: يعيش، يعيش أندريس العظيم! تحيا پريثيوثا، حبيبتة وجوهرة المصونة!». .

لم تقف الغجريات مكتوفات الأيدي بل فعلمن الشئ نفسه مع پريثيوثا دون أن يخلو المشهد من الغيرة التي كانت تتلبس «كريستينا» وأخريات غيرها، فالغيرة تعشش أيضا في مخيمات البرابرة وأكواخ الرعاة مثلما تسكن قصور الأمراء، ورؤية الجار ينعم بما يبدو لى أنه لا يستحقه أكثر منى تتعب وتضنى.

بعد انتهاء الحفل الرائع بالوافد الجديد أقبلوا على تناول غذائهم بشهية ونهم، ولما فرغوا منه وزعوا مائتي الإسكودو بينهم بالعدل والقسطاس لتنهال المدائح من جديد على أندريس وپريثيوثا.

ولما حنَّ الليل ذبحوا البغلة ودفنوها فى مكان آمن، كما دفنوا معها - مثلما يفعل الهنود مع موتاهم - طاقمها المكون من سرج ومهمازين وخطام ورسن، أعجب أندريس بما سمعه ورآه من إشراقيات الغجر، وعزم على اتباع سبيلهم مع التخلّى تماما عن عاداته القديمة أو التخفف - على الأقل - منها قدر استطاعته ، وإن كان قد عقد النية فى الوقت نفسه على التملص - بمساعدة حافظة



نقوده - من ارتكاب الأفعال الظالمة التي يأمرونه بها. رجاهم أندريس فى اليوم التالى تغيير محل إقامتهم والابتعاد عن مدريد حتى لا يتعرف عليه أحد لو ظل بالقرب منها، أخبروه أنهم كانوا قد قرروا قبل حضوره الذهاب إلى جبال طليطلة لممارسة نشاطهم فى المناطق المحيطة بها.

للموا حاجياتهم وحملوها على الدواب والعربات ثم قدموا لأندريس جحشا ليركبه، لكنه أبى وفضل السير على قدميه ليتعهد الجحش الذى تمتطيه بريثوثا ، وهكذا سارت المحبوبة مزهوة بتابعها الأنيق الرشيق، وهو مغتبط برؤية من نصبها قلبه مليكة لمشيئته تمضى إلى جواره.

(أه، أيتها القوة القاهرة لما يسمونه بـ «معبود المرارة العذب»  
(والتسمية من بنات أفكارنا) بأى منطق تخضعيننا ، وتعامليننا بغير احترام ؟ فهذا أندريس - الفتى الرزين والفارس المغوار الذى قضى شطراً كبيراً من حياته بالعاصمة يتقلب بين أحضان النعيم - قد تحول من النقيض إلى النقيض بين عشية وضحاها: خدع خدمه وأصدقاءه، أطاح بأمال والديه فيه، ترك الطريق إلى «فلانديس» حيث كان باستطاعته التعبير عن نفسه وتسجيل المزيد من صفحات المجد والفخر فى سجل آبائه وأجداده ، وكل هذا فى مقابل الركوع تحت قدمى فتاة والعمل سائساً لها. صحيح أنها رائعة الجمال ، لكنها غجرية ، إنها حقا لإحدى معجزات الجمال تلك المتمثلة فى القدرة على إخضاع الإرادة العصية الشاردة وإحضارها قسرا لترتمى

تحت قدميه).

بعد أربعة أيام من السير المتواصل ألقوا بعضا الترحال عند قرية تبعد فرسخين عن طليطلة، وقبل أن ينصبوا عششهم وخيامهم سلموا عمدتها بعض المشغولات الفضية كضمان على عدم مزاولتهم لأنشطتهم بالقرية أو المنطقة التابعة لها.. انتشروا بعد ذلك فى جماعات لممارسة نشاطهم فى كافة الأنحاء التى تبعد عن مضاربهم بمسافة لا تقل عن أربعة فراسخ أو خمسة... انضم أندريس إلى إحدى المجموعات وذهب معها ليتلقى درسه العملى الأول فى النشل، ورغم أنهم لقتوه العديد من الدروس إلا أنه لم يستوعب واحداً منها، وفى مقابل هذا كانت كل عملية نشل ينفذها أساتذته تحز فى نفسه وتوجهه فى الصميم، وغالباً ما كان يرق لدموع المخدوعين ويرد إليهم - من ماله الخاص - ما سلبه زملاؤه منهم، يأس منه الغجر وأفهموه أن سلوكه هذا يناقض قوانينهم ولوائحهم التى تتصدى بكل حزم لأية بادرة إحساس بالشفقة، لأنها لو تسللت إلى قلوبهم ستطمس هويتهم ولن تقوم لهم بعدها قائمة.

عندما أدرك أندريس قنوطهم أخبرهم برغبته فى ممارسة النشل بمفرده دون وصاية من أحد، فهو لا تنقصه الخفة ليهرب أو الحافز ليسرق، وبهذا الشكل يتحمل وحده نتيجة عمله: خيراً أو شراً.

عبثاً حاول الغجر إقناعه بالعدول عن رأيه: أفهموه أنهم يتعرضون فى عملهم هذا لمواقف تحتاج - سواء بالنسبة لإنجاز المهمة أو للدفاع عن النفس - لمعونة الغير، وأن شخصاً بمفرده لا

يستطيع القيام بمهام ذات شأن، لكنه أصر - رغم الحجج الكثيرة التي ساقوها - على الانفصال عن المجموعة لتبتيته النية على شراء أية سلعة وادعاء سرقتها، وبهذا الشكل يتخفف قدر استطاعته من عبء تائب الضمير.

بعد تنفيذ أندريس لحيلته تلقت منه الأخوية فى أقل من شهر ما يفوق جملة ما أحضره أربعة من أمهر لصوصها، كانت بريثوثا شديدة الزهو باستواء عود خطيبها الغض على ساقه وبتحوله إلى لص بارع، ومع هذا كان يقلقها ويقض مضجعها الخوف من إيقاعهم به ذات يوم وتجربسه ، لم تكن ترضى له بهذا المشهد المخزى ولو فى مقابل كنوز «فينيسيا» جميعها. (لابد أن هذا الشعور الطيب من جانبها كان مبعثه تفانيه فى خدمتها والهدايا الكثيرة التى تتلقاها منه).

أمضوا فى نواحي طليطلة ما يزيد على الشهر بقليل، ولما حلت البرودة بانقضاء سبتمبر شدوا الرحال ويمموا شر إقليم «إكستر يمادورا» المشهور بدفئه وغناه. كان أندريس يتبادل أحاديث الغرام العفيفة مع بريثوثا، وشيئا فشيئا أخذت الفتاة تتعلق به بأدبه الجم ومعاملته اللطيفة، أما كأس الهوى الذى كان مترعاً عنده وليس بحاجة إلى المزيد فقد فاضت حوافه بفعل طهارة حبيته وفطنتها ومتعة النظر إليها عن قرب.. كان يلفت إليه الأنظار فى أى مكان يحلون به، فهو يعدو ويقفز كالظباء يلعب الصولجان والكرة بخفة ومهارة، يرمى الزانة بقوة وإتقان لا نظير لهما..

خلاصة القول أن شهرته حلقت فى مدة وجيزة - بالتوازى مع شهرة خطيبته - فى جميع أجواء «إكستريمادورا» وأن الناس فى كل مكان كانوا يتحدثون عن رشاقة ومهارة العجى أندريس كابابيروا وعن ظرفه ومواهبه، وعن جمال وسحر العجى الصغيرة، ومن هنا حرص سكان الإقليم - سواء فى المدن أو القرى أو النجوع - على توجيه الدعوة إليهما لإضفاء البهجة والحبور على أعيادهم الدينية أو احتفالاتهم الخاصة، وهكذا بدأ الغنى والازدهار يدبان فى أوصال مخيمات العجى وترفرف فوقها أجنحة السعادة، بينما اكتفى العاشقان بتبادل النظرات.

عندما كانت خيامهم منصوبة - فى إحدى المرات - بين أشجار البلوط فى مكان بعيد بعض الشئ عن الطريق العمومى سمعوا، ذات ليلة، فى منتصفها تقريبا، نباح الكلاب يتعالى بإصرار وحمية أكثر من المعتاد، خرج بعض الأفراد - بينهم أندريس - لاستطلاع الخبر، فوجدوا شابا يرتدى ملابس بيضاء يحاول إبعاد الكلاب عنه والتخلص من اثنين منهم تمكنا من الإمساك بإحدى ساقيه، هرعوا إليه وبعد تخليصه سأله أحدهم:

- ما الذى رمى بك إلى هذا المكان البعيد عن الطريق وفى تلك الساعة؟ أجنئت لتسرقنا؟ لو كنت قادما لهذا الغرض فنعم الاختيار.

- ما قدمت للسرقة - أجاب العضوض - ولا أدرى ما إذا كنت أسير على الطريق أو خارجه، وإن تبين لى الآن أننى ابتعدت عنه بالفعل، لكن، بربكم أيها السادة، ألا يوجد خان قريب من هنا أوى

إليه هذه الليلة لأضمد الجراح التي أحدثتها كلابكم؟  
- لا يوجد بالجوار خان واحد نذلك عليه - أجاب أندريس - لكن  
مادام الأمر يتعلق بالليلة ومداواة جراحك فلن نعجز عن توفير فراش  
مريح لك داخل مخيمنا، تعال معنا، فنحن معاشر العجر نعرف أيضا  
الرحمة.

- يرحمكم الله أيها السادة - رد الشاب - احملوني إلى حيث  
تريدون لأن آلام ساقى أنهكتنى.

اقترب منه أندريس وغجى آخر - فمن بين الشياطين يوجد من  
هو أسوأ من الآخر، ومن بين حشد الرجال الأشرار يمكن العثور  
على واحد طيب - وتعاوننا سوياً على حملة.

كانت الليلة صافية مقمرة مما جعلهم يرونه بوضوح: كان شابا  
جميل الخلقة، رشيق القد ، يرتدى ملابس بيضاء من الكتان. فور  
وصولهم به إلى كوخ أندريس أضاعوا المصباح وأوقدوا النار  
وأرسلوا فى طلب جدة پريثيوثا التى حضرت على جناح السرعة  
لتطبيبه، انتزعت العجرية العجوز بعض الشعور من الكلبين العاقرين  
وقلتهم فى الزيت، غسلت بالنبيذ مكان العضتين على الساق اليسرى،  
ووضعت فوقهما الشعور المقلية فى الزيت ثم أضافت قليلاً من نبات  
القرمان المطحون ، قامت بعد ذلك بإحكام ربط الجرحين بقطعة نظيفة  
ثم أشارت عليهما بعلامة الصليب ، ولما فرغت من عملها قالت:

- نم أيها الصديق، وستصبح بعون الله وكأن شيئاً لم يكن.  
كانت پريثيوثا تسترق النظر إلى الشاب أثناء قيام جدتها

بتطبيبه، ولم يمكس هو الآخر عن إنعام النظر إليها، استرعى هذا انتباه أندريس، لكنه أرجعه إلى جمال بريثوثا الخلاب الذى يستولى على العيون ويجبرها على التوجه إلى صاحبه . المهم أنهم فى النهاية تركوا الشاب بعد تضميد جراحه ليسترىح فوق سرير من القش الجاف وآثروا عدم إزعاجه فى تلك الظروف بالسؤال عن هويته أو وجهته أو أى شىء آخر.

أخذت بريثوثا أندريس من يده وانتحت به جانباً فور ابتعادهما عن الكوخ لتقول له:

- ألا تذكر تلك الورقة التى سقطت منى عندما كنا نرقص أنا

وزميلاتى فى بيتكم، واغتظت بسببها؟

- نعم أذكرها، لقد كانت تحتوى على سونيت لا بأس به، يمتدح

جمالك.

- لا تنزعج إذن لو علمت أن الذى ألف هذا السونيت هو الشاب

المعضوض الذى تركناه راقداً فى الكوخ، لاشك أنه هو، فقد كلمته

فى مدريد مرتين أو ثلاثا سلمنى خلالها قصيدة أخرى رائعة. إنه

يعمل وصيفاً فى مدريد ، لا لرجل عادى بل لأحد الأمراء على ما

أظن . إنه - حقاً - شاب مهذب، راجح العقل وفى منتهى العفة، ولا

أدرى ما الذى ساقه إلى هذا المكان.

- وبما ظنك أنت، يا بريثوثا؟ لم يأت بهذا الشاب فى ثياب

الطحان إلى هنا إلا الذى أحضرنى قبله وجعلنى غجرياً، لقد بات

واضحاً للعيان أن من دواعى سعادتك رؤية نفسك محاطة بالعديد

من المعجبين الخانعين، لو كنت فعلاً هكذا، اقتليني أولاً ثم ألقى بي  
هذا الآخر، هذا إذا لم تكونى تضميرين التضحية بنا سويًا على  
عتبات وهمك، حتى لا أقول جمالك.

- عفوك يا إلهي! - قالت بريثوثا - أيمكن أن يصل بك الطيش إلى  
هذا الحد وأن تجعل سمعتى وأمالك فى مهب الريح معلقتين بخيط  
رفيع! لقد تمكن سيف الغيرة الصلد من اختراق روحك فى سهولة  
ويسر، قل لى، يا أندريس، هل قلبت النظر ووجدت شائبة اصطناع  
أو خداع فيما أخبرتك به؟ ألم يكن بمقدورى الصمت وإخفاء حقيقة  
هذا الشاب؟ أم تظننى - على سبيل المصادفة - حمقاء لدرجة إعطائك  
الفرصة كى تضع طبيبتى وحسن نيتى موضع الشبهات؟ اصمت يا  
أندريس، بالله عليك، وحاول من الآن وحتى انبلاج الصباح اقتلاع  
هذه الوسواس والأوهام من صدرك، ربما يكشف لك عقلك عن  
بطلان هواجسك، ولكى أرضيك وأقطع دابر الشك عندك - مادامت  
المسألة قد وصلت إلى الحد الذى يستدعى استرضاءك - أطلب منك  
طرد هذا الشاب دون انتظار للبحث عن الدوافع التى أُلقت به إلى  
هذا المكان، اطرده ولن يمانعك أحد، فجميع من بالمخيم لا يعصون  
لك أمراً. ولو فرضنا أن هذا لم يحدث أتعهد لك بعدم مغادرة مسكنى  
من هذه اللحظة ولا أمكنه من رؤية ذيل ثوبى، لا هو ولا غيره ممن لا  
تروقك رؤيتهم لى، أتعرف يا أندريس أنه لا يحزننى البتة رؤيتك  
غيوراً، لكن يحزن فى نفسى ويوجعنى كثيراً أن أخالك نزقاً أو غير  
بصير.

- إذا لم يعترينى الجنون - رد أندريس - فأى عارض آخر يعد تافهاً أو لا وجود له نظراً لما يمكن أن تحدثه الغيرة المزيرة القاسية من أضرار جسيمة. ورغم كل هذا فلا مانع لدى من مسائرتك ومحاولة الوقوف - إن تيسر هذا - على حقيقة ما يريده هذا الوصيف الشاعر، وإلى أين هو ذاهب وعن ماذا يبحث، فبالإمكان التقاط خيط قد يظهر منه على حين غفلة يقود إلى استخراج البكرة المخبوءة، وإن كنت أخشى أن تطوقنى لفائفها.

- الغيرة على ما أظن - قالت بريثوثا - لا تترك العقل حراً طليقاً لكي يزن الأمور بميزانها الصحيح، فالغيورون ينظرون دائماً من خلال عدسات مكبرة بعيدة المدى تجعل الأشياء الصغيرة كبيرة والقزمة عملاقة، وتقلب الشكوك حقائق، أستحلفك بحياتي وحياتك، يا أندريس، أن تتصرف فى هذا الأمر وفى كل ما يعن لنا من أمور بحنكة وروية، لو فعلت هذا فأنا على يقين من أنك ستسلم وتقر - دون تحفظات - بعفافي وصونى ومصداقيتى.

ودعته بريثوثا بعد ذلك وعادت إلى كوخها بينما ظل هو منتظراً (عكر المزاج، تتناوشه آلاف التخيلات السقيمة) انبلاج الصباح ليتلقى اعترافات الجريح، لم يستطع تخيل سبب آخر لمجئ ذلك الوصيف سوى افتتانه بجمالها، فاللص يتصور الناس جميعاً على شاكلته، ومن جهة أخرى، بدا له أن اجتهاد بريثوثا فى استرضائه بهذا الشكل يجبره على العيش هانئاً قرير العين وعلى أن يسلم ، مطمئناً، دفة حظه إلى يدها الأمانة.



أخيراً طلع النهار، ومع طلوعه اتجه أندريس إلى كوخ العضوض وأخذ يطره بوابل من الأسئلة: عن اسمه ووجهته ومغزى سيره فى وقت متأخر من الليل بعيداً عن الطريق العمومى، وإن كان قد سأله أولاً عن حاله وآلام جراحه ، أجابه الشاب عن السؤال الأخير قائلاً: إنه بخير ولم يعد يشعر بأى ألم مما يجعله قادراً على مواصلة طريقه، أما بالنسبة لاسمه ووجهته فلم يجب بأكثر من أنه يدعى «ألونسو أورتادو»، وأنه زاهب فى مهمة إلى «نويسترا سنيورا دى لا بينيا دى فرنسا»<sup>(٢٣)</sup>، وأن حرصه على الوصول بسرعة إليها هو الذى اضطره إلى السير ليلاً، ولهذا السبب ضل الطريق واقتادته قدماه إلى هذا المخيم حيث هاجمته الكلاب وأحدثت به ما شاهدوه بأعينهم.

بدا واضحاً لأندريس شدة زيف هذه التصريحات الملفقة، ومن ثم عادت الهواجس تمزق روحه من جديد قال له منفِعلاً:

يا أخى لو كنت أنا القاضى وجئت إلى ساحتى متهماً بجرم ارتكبه ووجه إليك ممثلو الإدعاء الأسئلة التى طرحتها عليك الآن، فإن إجاباتك الحالية ستضطرني لأن أمرهم بتكثيف الضغط عليك بالقيود والحبال، لا يهمنى معرفة من تكون ولا حتى اسمك أو وجهتك ، إنما أريد أن تسمع منى هذه النصيحة إذا كنت بحاجة إلى الكذب فافعل بشكل لا يسترعى الانتباه . تدعى أنك زاهب إلى «بينيا دى فرنسا» بينما هى وراءك بما لا يقل عن ثلاثين فرسخاً، وأنت تسير ليلاً لضيق الوقت بينما تترك الطريق وتتخبط فى الغابات بين أشجار

البلوط حيث لا توجد دروب ولا حتى مسالك، لكن ألا يستحق تنبيهك إلى خطئك الاعتراف ولو بحقيقة واحدة؟ ألسنت - على سبيل المصادفة - ذلك الوصيف الذى رأيتة عدة مرات فى مدريد ، ذلك الشاعر المشهور الذى ألف قصيدتين فى غجرية حسناء كانت تجوب شوارع العاصمة منذ بضعة أشهر؟ أخبرنى بالحقيقة، وأعدك بحفظ السر وعدم البوح به. لو لم تعترف لى بأئك الشخص الذى أحدثك عنه فلن تبرح هذا المكان ، لأن الوجه الذى أراه أمامى هو نفسه الذى شاهدته من قبل فى مدريد، لقد حملنى ذبوع صيتك وغرابة أمرك على التدقيق فىك وقتها، وهكذا انطبعت صورتك فى مخيلتى ، ومن ثم لم أجد صعوبة فى التعرف عليك فور رؤيتك رغم تخفيك فى هذه الثياب ، لا ترتبك، تشجع ، ولا تظن أنك بين براثن مجموعة من اللصوص، بل فى ملجأ آمن يعرف الذود عنك وحمايتك من العالم بأسره، اسمع، نفسى تحدثنى بشئ ، ولو صدق حدسى يكون حسن طالعك هو الذى جعلك تعثر فى: أظن أنك وقعت فى غرام بريثوثا - تلك الغجرية الجميلة التى كتبت فيها شعراً - لذلك أتيت للبحث عنها، ومثل هذا الأمر لا يعيبك بل يزيد من قدرك ، فأنا رغم غجريتى - قد علمتنى التجارب أن يد الحب تفعل الأعاجيب بمن يقعون تحت إمرتها أو يتقلبون فى ساحتها، لو كان ظنى فى محله - وأعتقد أنه كذلك - فالغجرية المقصودة موجودة هنا.

- أعرف أنها هنا لأننى رأيتها ليلة أمس - قال المعضوض، ويقوله هذا امتقع لون أندريس وتأكدت شكوكه - ولكننى لم أجرؤ على

الكشف لها عن شخصيتي حتى لا تتفاهم الأمور.

- أنت إذن الشاعر الذى أعنيه.

- نعم أنا، فلم يعد بالإمكان الإنكار، ربما ينتظرني الخير فى

المكان الذى حسبت أننى وضعت فيه، هذا إذا سلمنا جدلاً بأن فى

الغابات يمكن أن يتوافر الأمان أو الترحاب فى الجبال.

- يتوافر بالتأكيد - قال أندريس - وعلى وجه الخصوص فى

مضارب الغجر - والآن بوسعك أيها السيد - انطلاقاً من الثقة

المتبادلة - الإفصاح عن مكنون صدرك وستجدنى نعم الناصح الأمين،

العجربة قريبتى، وولايتى عليها تخول لى أن أفعل بها ما أريد ، لو

كنت تريدها زوجة لا يسعنا إلا مباركة اختيارك، ولو أردتها خلية

فلم نمانع مادامت حافظتك عامرة بالنقود، فالجشع يعتبر إحدى

شيمنا الأصيلة.

- المال موجود والحمد لله - رد الشاب - ففى كُمى قميصى هذا

توجد أربعمائة إسكودو ملفوفة حول ساعدى.

نزل هذا الخبر على أندريس كالصاعقة، إذ تصور أن الشاب لم

يحضر معه كل هذا المبلغ الضخم إلا لاستهواء حبيبته أو لشرائها،

ومع هذا تمالك نفسه ليوصل معه الحديث وإن كان بلسان متلعثم

مرتجف:

- إنه حقاً لمبلغ كبير، لم يبق إذن إلا الكشف عن هويتك والشروع

فى العمل .. الفتاة ليست بلهاء وستسعد أيما سعادة بالاقتران

بشباب مثلك.

- أه ، يا صديقى !- قال الشاب - أود أن تعرف أن القوة القاهرة التى أجبرتتى على ارتداء هذه الثياب المستعارة لا صلة لها بالحب الذى تتفنن فى الحديث عنه، ولا حتى بالرغبة فى بريثيوثا، فالعاصمة مدريد تعج بالفاتنات اللاتى يأسرن القلوب ويخطفن الألباب، وجمال قريبتك وإن كان يبزهن جميعا إلا أنه فى نهاية المطاف على غجرية . ما ألقى بى إلى هذا المكان فى هذه الثياب، سائرا على قدمى ومعضوضاً من الكلاب ليس سببه الحب، بل طامة كبرى ومصيبة عظيمة هبطت على أم رأسى.

استعاد أندريس بعد سماعه الكلمات السابقة قواه الخائرة، وبدا له أن الأمور تمشى فى اتجاه مغاير لما ذهب إليه تفكيره، وللهفته الشديدة للخروج من تلك البلبلة ، عاود الضغط على الشاب لكى يكشف عن أبعاد نكبته، وقد تحقق له المأمول لأن المعضوض واصل حديثه قائلاً:

- فى مدريد كنت أعمل وصيفاً لأحد حاملى الألقاب الذى لم يكن يعاملنى بهذه الصفة، بل كفرء من أهل بيته، كان لسيدى هذا ابن وحيد يماثلنى فى العمر ويشبهنى فى معظم الصفات، ومن ثم فقد كانت تربطنى به علاقة أخوة وصدائة، حدث أن أحب هذا الابن فتاة من أحد البيوتات العريقة، وكان من الممكن أن يختارها عن طيب خاطر لتكون زوجته لو لم يكن قراره متوقفاً - كالحال فى الأبناء المؤدبين الذين لا يفعلون شيئاً إلا بموافقة أولياء أمورهم - على تصريح والديه الذين كانا يرغبان فى تزويجه من عروس تنتمى

لطبقتهم الاجتماعية الراقية ، المهم أن صديقى هذا وابن سيدى كان يتودد إلى فتاته سراً ، بعيداً عن كافة العيون فيما عدا عينى هاتين اللتين شهدتا محاولاته المتكررة لإرضائها ، وذات ليلة ، يبدو أن القدر المشئوم قد اختارها لحدوث المصيبة التى أخص لك وقائعها على النحو التالى: فى أثناء طوافنا بشارع تلك الفتاة لمحنا رجلين ، حسنى المظهر ، يحومان حول بيتها ، أراد صديقى معرفة من هما ، ولم يكذب يخطو بضع خطوات - وأنا إلى جواره - حتى امتشق كل واحد منهما حساماً بيد وبالأخرى أشهر مسدسه واتجها نحونا ، اضطررنا اضطراراً لفعل الشئ نفسه لتجرى معركة لم تدم طويلاً ، هذا لأن روحى الخصمين فارقتا جسديهما سريعاً من جراء طعنتين: سددت الأولى بسيف صديقى المدفوع بالغيرة ، بينما وقع على عاتقى تسديد الثانية دفاعاً عن النفس ، وهكذا انتهى المشهد بسرعة نادرة وغير معهودة ، بعد انتصارنا الذى لم نكن نريده ولا نطمع فيه ، عدنا أدراجنا إلى البيت وأخذنا - دون أن يشعر بنا أحد - ما طالته أيدينا من نقود ، ثم غادرناه ولجأنا إلى دير «سان خيروثيمو» للاحتباء به ، فى انتظار ما سيسفر عنه التحقيق عندما تكتشف الجريمة فى الصباح ، علمنا بعد ذلك أن المحققين لن يستدلوا على أى أثر للجناة ، وعندئذ نصحنا الرهبان بالعودة إلى البيت حتى لا يثير غيابنا الشكوك... اقتنعنا بوجهة نظرهم ، وحين هممنا بالانصراف علمنا أن قضاة العاصمة احتجزوا الفتاة ووالديها وخدمهم للاستجواب ، وأن خادمة الفتاة أخبرتهم أن صديقى كان يحوم ليل

نهار حول بيت سيدتها، قامت قوات الشرطة - بناء على هذه القرينة بمداهمة المنزل للقبض علينا فلم تجد سوى آثار هروبنا مبعثرة في أرجاء المكان، وبهذا الشكل أدركت العاصمة بأسرها أننا منفذا الجريمة التي راح ضحيتها رجلان من علية القوم... ظللنا مختبئين خمسة عشر يوماً، وفي نهايتها ارتأى صديقي الكونت والرهبان ضرورة مغادرتنا للدير: بصحبة أحدهم خرج زميلي متخفياً في ثياب كاهن قاصدين إقليم «رغون»، كان ينوى مواصلة الهرب إلى إيطاليا ثم إلى «فلاندس» حيث يمكنه متابعة تطور الأحداث من بعيد، لم أشأ مرافقته حتى لا أربط مصيرى بمصيره، ولذا أخذت طريقاً مغايراً : فى ثياب خادم قسيس خرجت - على قدمى - بصحبة راهب آخر ظل ملازماً لى حتى وصلنا إلى «طلبيرة» ومنها سرت بمفردى خارج الطريق العمومى جتى وجدت نفسى داخل هذا الدغل من أشجار البلوط حيث جرى لى ما عاينتموه ، وإذا كان قد ورد على لسانى ذكر «بينيا دى فرنسا» فهذا لأننى أردت الإجابة بشئى عما سألتنى عنه، فأننا لا أعرف حقيقة موقعها بالتحديد، وغاية علمى بها أنها تقع خلف مدينة «شلمنقة» بمسافة كبيرة .

- أنها بالفعل هكذا - رد عليه أندريس - لو سرت فى الطريق العمومى ستجدها على يمينك بعد حوالى عشرين فرسخاً من هنا(٣٤) .

لا أنوى الذهاب إليها - قال الشاب - بل إلى إشبيلية لمقابلة تاجر إيطالى من جنوة تربطه صداقة حميمة بالكونت قريبي، وهو

متخصص فى تجارة الفضة التى يرسل منها شحنات ضخمة وبصفة دورية إلى مسقط رأسه. أمل أن يخبئنى فى أحد الصناديق لأتمكن من الوصول إلى ميناء قرطاجنة (فى مملكة مرسية)، ومنه إلى إيطاليا على متن سفينة من السفينتين المنتظر قدومهما قريباً إلى هذا الميناء لتحميل شحنات الفضة... هذه هى حكايتى باختصار ، أيها الصديق، وهى كما ترى مترعة بالمأسى والمصائب ولا تمت بصلة إلى لواعج الحب أو تباريح الهوى، ومن هنا إلى إشبيلية أتعشم أن يقبلنى هؤلاء السادة الغجر ضمن قافلتهن إن كانوا قد أزمعوا الرحيل إليها، فأنا أظن أن السفر بصحبتهن سيبدد الخوف الذى يقض مضجعى، وسيجعلنى أشعر بالأمان.

- لست أدرى إذا كان الغجر بمخيمنا سيشدون الرحال فى القريب العاجل إلى «أندلوثيا» أم لا، لكنى أعتقد أننا سنمر بعد يومين على مخيم آخر للغجر ذاهب إلى هناك ولا أظن أنهم سيمانعون فى انضمامك إليهم مادمت ستعطيهم فى المقابل بعض ما لديك من مال.

تركه أندريس وعاد إلى الغجر ليخبرهم بحقيقة الشاب وبرغبته فى البقاء معهم للسفر إلى أشبيلية نظير مبلغ كبير من المال. رحب الجميع به فى المخيم فيما عدا پرينثوثا وجدتها، لم تفصح الأولى عن سبب رفضها، أما الجدة فقد أرجعت استحالة اقترابها من أشبيلية أو نواحيها إلى مزحة من النوع الثقيل جرت منذ عدة سنوات مع صانع قبعات وأغطية للرعوس مشهور بتلك المدينة ويدعى

«تريجيوس»<sup>(٣٥)</sup> . قالت إنها جعلته يُدخل نفسه - عاريا كما ولدته أمه وعلى رأسه إكليل من أفرع شجر الصفصاف - فى خابية كبيرة مملوءة عن آخرها بالماء فى انتظار انتصاف الليل لكى يخرج من محبسه ويحفر بهمة لاستخراج كنز عظيم كانت العجوز قد أوهمته بأنه مدفون فى أحد أركان بيته ولا توجد طريقة لاستخراجه سوى الموصى بها .

عندما سمع صانع القبعات أجراس الكنيسة تعلن انتصاف الليل، دفعته لهفة الخروج فى الوقت المناسب إلى الارتطام بأحد جوانب الخابية فسقطت وهو بداخلها على الأرض، تناثرت الخابية أشلاء مفرغة محتواها على الأرض، و«تريجيوس» وسط الماء يسبح مشوشاً - من هول السقطة ومن آلام الرضوض التى أحدثتها الشظايا بجميع أجزاء جسده - ويصرخ مستغيثاً لينقذوه من الغرق .

حضرت زوجته على الصراخ ولحق بها الجيران وبأيديهم القناديل فوجدوه منهمكاً فى تأدية حركات العائم: يشهق ويزفر بعمق، يجرجر بطنه على الأرض وهو يحرك بأقصى سرعة ساعديه ورجليه وينادى بأعلى صوته: النجدة ، النجدة ، إنى أغرق .. لقد بلغ به الذعر مبلغا جعله يتصور أنه يغرق بالفعل، أمسكوا به وانتشلوه من بين براثن ذلك الخطر، وعندئذ تاب إلى رشده وقص عليهم تعليمات العجرية . ومع أنهم أخبروه أنها مجرد مزحة سخيفة إلا أنه نهض من فورهِ وشرع يحفر بهمة فى المكان الموصى به، ولو لم يتداركه أحد الجيران ويمنعه بالقوة من مواصلة الحفر فى



الأساسات لانهار البيت بكامله فوق رؤسهم جميعاً، انتشرت أنباء تلك الواقعة فى كافة أنحاء المدينة لدرجة أن الصبيان كانوا يشيرون إليه بأصابعهم حين يرونه ويتعجبون من حمقه ومن شدة دهائى وخبثى.

ما روته الغجرية العجوز كان عذراً أكثر من مقبول لعدم الذهاب إلى أشبيلية ، ومن جهة أخرى فقد أسال المبلغ الكبير الذى يحمله الشاب لعاب الغجر، ومن ثم فقد أعربوا دون تردد عن الترحيب به ضيفاً على مخيمهم، وأبدوا استعدادهم لضمان سلامته وإخفائه طيلة الوقت الذى يريده، بل إنهم تطوعوا بتغيير مسار رحلتهم والانحراف جهة اليسار لاختراق إقليم «لامنتشا» والوصول به إلى مملكة مرسية.

نادوا بعد ذلك على الشاب وأخبروه بما سيفعلونه من أجله، فشكرهم على حسن صنيعهم وأعطاهم على الفور مائة إسكودو لاقتسامها فيما بينهم.

كان لهذه المنحة مفعول السحر فى نفوس الغجر فأصبحوا يعاملونه بكل لطف ولين ولا يدخرون وسعا فى العمل على راحته.. أما بريثيوثا فلم تكن مستريحة لوجود هذا الشاب الذى تبين أنه يدعى «دون سانتشو» ، لكن الغجر أطلقوا عليه «كليمنتى» وظلوا ينادونه به، أندريس أيضا لم يسر كثيرا ببقاء كليمنتى لاعتقاده أنه لم يبرأ تماماً من إعجابه القديم ولم يتخلص من كافة رواسبه ، كان كليمنتى من الذكاء بحيث أدرك ما يعتمل فى صدر أندريس، ومن ثم

فقد انتهز فرصة حديث مطول معه ليصرح له وسط الكلام بأن غاية همه هو الذهاب إلى مملكة مرسية ليستقل من مينائها في قرطاجنة سفينة من السفينتين المتجهتين إلى إيطاليا ، ومع هذا لم يسكن روع أندريس ولذا حرص على أن يكون زميله المصاحب له في الحل والترحال حتى لا يغيب عن عينيه ويستطيع مراقبة حركاته وسكناته، شكر له كليمنتي هذا الصنيع دون أن يفطن إلى دواعيه، المهم أنهما أصبحا متلازمين منذ تلك اللحظة: كانا ينفقان بسخاء ويتصدقان عن سعة، يشتركان معا في الرقص وفي مسابقات العدو والوثب ورمى الزانة التي أظهرها فيها براعة منقطعة النظير، ولهذه الأسباب مجتمعة هفت إليهما قلوب العجريات واستأثرا باحترام رجالهن.

تركوا إقليم «إكستريمادورا» ودخلوا إقليم «لامنتشا» وبين توقُّف وسير على الطريق المؤدى إلى مملكة مرسية أخذوا يقتربون منها رويداً رويداً، وفي جميع القرى والأماكن التي يمرون بها كانت المسابقات تعقد (في لعب الكرة والمبارزة بالشيش والعدو والقفز وبقية ألعاب القوى التي تتطلب مهارة وخفة) التي بات الفوز فيها حكرًا. على أندريس وكليمنتي (مثلما كانت من قبل حكرًا على أندريس) ... لم يجد كليمنتي طوال تلك الفترة التي زادت عن شهر ونصف أية فرصة (والحق يقال إنه لم يسع أيضا لاختلاقها) للكلام مع بريثوثا أو التوجه إليها بالحديث ، وبينما كانت واقفة ذات يوم مع أندريس نادى عليه الأخير عندما شاهده يمر على مقربة منهما، لبي كليمنتي النداء، وعندما وصل إليهما قالت له بريثوثا:

- عرفتك يا كليمنتي أول مرة رأيتك فيها داخل مضاربنا وتذكرت أشعارك التي كتبتها لى فى مدريد، وإذا كنت لم أقل عنك كلمة ساعتها فهذا لأننى لم أكن أعرف ما وراءك، ألمنى فى الصميم خبر نكبتك وإن كان قد أعاد الطمأنينة إلى قلبى الذى سيطر عليه الفزع لاعتقاده أن بإمكان «دون شانتشو» انتحال شخصية أخرى مادام «دون خوان» قد تحول قبله إلى أندريس، دفعنى لقول هذا علمى من أندريس أنه كشف لك عن حقيقته وعن الدافع لاتخاذة حياة العجز، ويبدو أنه أطلعك على سره ليستطيع التشاور معك وتبادل الأفكار حول هذا الموضوع، لا تظن يا كليمنتي أن معرفتى السابقة بك ضاعت هباءً، يكفى أن احترامى لك وما أثبتت به عليك كان سبباً فى بقائك بين ظهرانينا، وإنى لأضرع إلى الله بأن توفر لك الإقامة فى مضاربنا الحماية التى تنشدها وتحقق من خلالها أمانيك وما تسعى جاهداً إليه، وفى مقابل هذا الشعور الطيب من جانبى أتوسل إليك ألا تسفه أحلام أندريس وألا تعكر عليه صفو استمرار وضعه الحالى، فأنا رغم اعتقادى أن إرادته ترزح مستكنة تحت أفعال إرادتى إلا إنه يحزننى أن أرى منه بادرة - ولو يسيرة - تنم عن إحساسه بالندم.

قال كليمنتي عندئذ:

- لا تظنى، أيتها الجوهرة الفريدة، أن أندريس كشف لى عن هويته لتخاذل اعتراه: هذا لأننى الذى تعرفت عليه أولاً، ومن عينيه قرأت ما يرمى إليه أنا الذى بادرت بإخباره من يكون، وتكهنتم بالغل

الذى يطوّق إرادته، وقد تصرف هو طبقاً لما يمليه العقل والمنطق وأصدقنى الجواب، فما كان منى إلا أن قمت - وهو على هذا خير شاهد - بالثناء على قراره واختياره . أنا - آه - يا بريثوثا! - لست من السذاجة بحيث لا أدرك إلى أى مدى يمكن أن تتسع سطوة الجمال ونفوذه ، وجمالك يعتبر - لتجاوزه أقصى الحدود الممكنة للجمال - أشد الأعدار قبولا لارتكاب أعتى الأغلط ، هذا إن حق لنا إطلاق لفظ أغلط على التصرفات التى تفرضها الأسباب القهرية.. أشكر لك، يا سيدتى، ما قلته فى حقى، ولا أملك الآن لرد هذا الجميل سوى أخلص الأمانى بالخاتمة البهيجة لقصة حبكما المعقدة، وأن تسعدى بأندريس كما يسعد بك فى ظل موافقة ورضا والديه، فتزواج الجمال بنظيره يعنى إمداد العالم بأجمل الأفراخ (الأطفال) وهكذا تنعم الطبيعة بما تنتشده من حسن وبهاء، هذا ما أتمناه لكما يا بريثوثا. وهذا ما سأقوله دوماً لأندريس ، ولن يرد على لسانى شئ يعكّر صفو نواياه الرائعة الراسخة.

ساور الشك أندريس فى كلام كليمنتى السابق، ولم يعد يدرى إذا كان قد تفوه به من منطلق هيامه أم من منطلق فطنته وتهذيبه، ذلك لأن أفة الغيرة الجهنمية غاية فى الدقة بحيث تلتصق بذرات أشعة الشمس، وعندما تسقط هذه الذرات على الشئ المحبوب تصيب من يقترب منه بالإجهاد والقنوط، ورغم ما تقدم ذكره، إلا أن غيرة أندريس لم يكن لها ما يبررها، لكن هذا هو حال العاشقين الذين يعتبرون أنفسهم تعساء دائماً طالما أنهم لم يظفروا بما يلهثون

وراءه، خلاصة القول أن أندريس وكليمنتي أصبحا زميلين وصديقين عزيزين، وهذا بفضل نوايا كليمنتي الحسنة وخفر پريثيوثا اللذين تكفلا بواد أية فرصة يمكن أن توقظ الغيرة فى صدر حبيبها.

كانت موهبة الشعر ترفرف بجناحيها على كليمنتي (كما تشهد بذلك القصيدتان اللتان أهداهما لپريثيوثا) وتداعب أندريس من علٍ، لكن الاثنین كانا مغرمين بالموسيقى وعازفين ماهرين على آلاتها، ذات ليلة، بينما كان أندريس جالسا على جذع شجرة فلین وكليمنتي على جذع شجرة بلوط، ساهرين يتجاذبان أطراف الحديث فى مخيمهم المنصوب بوادٍ يبعد أربعة فراسخ عن مرسية، دعاهما صمت الليل وسكونه إلى أن يمسك كل منهما بـ «جيتار» والتغنى - على التوالي - بهذه الأشعار:

أندريس

تأمل ، يا كليمنتي ، الطرحة المنجومة  
التي ينافس بها النهار  
هذه الليلة الباردة  
فى ترصيع السماء بالأضواء المتلائة  
لو شحذت قريحتك البارعة،  
لرأبت على هذا الأنموذج،  
ذلك الوجه يظهر  
على ديباجة الجمال الأمثل.  
كليمنتي

على ديباجة الجمال الأمثل  
حيث توجد بريثوثا الشهيرة،  
العفة الأثيرة  
فى سحاء تَنَقَّى وتطهر،  
لو اتسعت لمثلها جنبات كائن حى،  
لن توفيهها حقها من المديح عبقرية بشرية  
ما لم تطلق لنفسها العنان  
لتخوض فى الأعلى، فى الغرائب والأعاجيب.  
أندريس

لا يخوض فى الأعلى ، فى الغرائب والأعاجيب  
إلا أسلوب لم يطرق بعد،  
ممتداً إلى عنان السماء،  
فى صراط لم يشهده العالم أجمع،  
اسمك، آه يا بريثوثا!  
يثير الدهشة والفرع والإبهار،  
أتمنى أن تحمله الشهرة  
إلى السماء السابعة.  
كليمنتى

حملة إلى السماء السابعة  
مناسب وعادل،  
فعندما يتردد هنالك

يفيض الحبور على ما تحتها من سماوات ،  
وفى الأرض أينما يُسمع صداه،  
تنساب المتعة  
موسيقى فى الأذان،  
سكينة فى الأرواح ونعيما فى الحواس  
أندريس  
سكينة فى الأرواح ونعيم فى الحواس  
هكذا الإحساس عندما تصدح بالغناء  
جنيّة البحر، التى تسحر الألباب  
وتخدر الجفون الأشد سهادا  
هكذا تكون بريثيوثتى،  
جمالها بعيض ما عندها:  
عطيتى اللذيذة،  
إكيل للملاحة، إجلال للحماسة  
تكونين ، غجرية جميلة،  
نضارة الصباح،  
فى الصيف القائظ النسائم العليلة  
شعاع به يحول الحب الأعمى  
برودة الصدور إلى غليان القدر  
القوة التى صاغتها على هذا المنوال  
تُميت برفق وتبعث السرور

لم يكن يبدو أنهما سينتهيان سريعا لو لم يسمعا صوت بريثوثا  
يجلجل خلف ظهريهما ، توقفا وأصاخا السمع للقصييدة التي تتدفق  
على لسانها العذب، ولأن موضوع القصيدة كان مناسباً للموقف  
ويعتبر رداً على أشعارهما السابقة، فلا أدري إذا كانت مرتجلة أم  
أنها حفظتها من قبل عن شاعر آخر، وسواء كان هذا الأمر أو ذاك  
فهاهى القصيدة التي تغنت بها:

- فى قضية الحب تلك  
التي نلهو بها ونتسلى،  
عفاى لحسن طالعى  
أعلى شأنأ من جمالى.  
فألبتة الأشد ضعفا  
لو نمت فى استقامة دون اعوجاج،  
بفضل الله أو الطبيعة  
سترقى يوما إلى عنان السماء.  
معدنى النحاسى المتواضع  
مادامت العفة طلاءه  
لم تعد تنقصه الأمانى  
ولا هو بحاجة إلى إثروات.  
لا يسبب لى أدنى كدر  
ألا يهوانى أحد أو يقدرنى حق قدرى  
لأننى على يقين أن الذى صاغنى



هو نصيبى وحظى الأسعد  
أهتدى بما هو مكنون بداخلى  
لأنه إلى جادة الصواب سيرشدنى  
وليس لى بعد ذلك الاعتراض  
على تدبير السماء وما تخطه الأقدار  
ليتنى أعرف وأتحقق  
مما إذا كان بمقدور الجمال  
حملى إلى القمة العالية  
حيث تشرئب النفس إلى المنزلة السامية.  
إذا كانت الأرواح فى الخلق متساوية،  
فلن تعجز الكائنة فى صدر الفلاح  
عن الرقى فى الفضل والقيمة  
إلى مصاف أرواح الأباطرة.  
أحس بأن روحى تواقفة  
للسمو إلى الدرجة العلية  
والحب والجلال  
على مقعد واحد لا يستويان.

عندما انتهت بريثيوثا نهضا لاستقبالها ، وأمضى ثلاثتهم بعض  
الوقت فى تبادل الأحاديث المتزنة المتعلقة، ومن مداخلات بريثيوثا  
التي تنم عن الفطنة والعفة وحدّة الذكاء وضع لكليمنتى سر تمسك  
صديقه بها والتمس له العذر فيما عقد عليه العزم، وقد كان حتى تلك

اللحظة متحيرا من مسلكه هذا ويظنه استجابة لطيش الشباب لا لنداء العقل والحكمة.

للموا حاجياتهم فى صباح اليوم التالى ويمموا شطر قرية لا أعمال مرسية ولا يفصلها عنها سوى ثلاثة أميال ، وبها حلت بآندريس كارثة كادت تودى بحياته... حدث بعد قيامهم - كما جرت العادة - بتقديم عدد من الأكواب والتحف الفضية لإقامة مضاربتهم بالقرية أن توجهت مجموعة تضم بريثيوثا وجدتها وكريستينا آخريين علاوة على آندريس وكليمنتى إلى خان أرملة غنية لها ابنة وحيدة تبلغ من العمر سبعة عشر أو ثمانية عشر عاما على الأكثر وتدعى «خوانا» كانت الفتاة قليلة الحياء بعض الشئ ولا تنعم بحظ من الجمال، وفوق هذا عجفاء لذا استحقت بجدارة لقب «كاردوتشا»<sup>(٣٦)</sup> الذى أطلقوه عليها... حين شاهدت الفتاة العجزة يرقصون عشقت آندريس وجن جنونها به، زين لها الشيطان ضرورة الانفراد به للإفصاح عما يعتمل بصدرها من أشواق ولطلب الزواج منه، إذ كانت تنوى المضى قدما فى تنفيذ رغبتها رغم أنف أهلها، وهكذا انتهزت فرصة دخوله الحظيرة لإحضار جحشين منها وتسلمت خلفه لتعرض عليه دون مقدمات - خوفا من اقتحام أحد خلوتهما - ما يلى:

آندريس (نادته باسمه مجردا) أنا آنسة غنية، وحيدة أمى التى تمتلك هذا الخان فضلا عن مزارع عديدة من الكروم وبيتين آخريين، أرغب فى الزواج منك لووافقت و أريد الرد حالا إن تيسر، أما إذا

كان حياؤك يمنعك الآن من التصريح بالموافقة فإننى سأعتبر اختيارك للبقاء وعدم الرحيل بمثابة موافقة ضمنية ، وثق تماما أنك لن تندم طيلة حياتك على اتخاذك مثل هذا القرار الإيجابى .  
بُهِت أندريس من جرأة الفتاة ورعونتها، وفضل الإجابة عليها بالسرعة التى تنشدها:

- أنا ، أيتها الفتاة، عازف عن الزواج، وحتى لو لم أكن كذلك فنحن معاشر العجرا لا نتزوج إلا فيما بيننا، أما المعروف الذى تتفضلين به علىّ ولا أستحقه فلا أملك حياله سوى التوجه إلى الله بالدعاء لكى يجزلك عظيم ثوابه.

صعقتها إجابة أندريس وكانت على وشك الرد عليه لو لم تدخل عليهما الحظيرة طائفة من العجريات، انسحبت وهى تشتت غضباً وفى نيتها الإنتقام للإهانة.

أملت الحكمة على أندريس ضرورة الفرار على جناح السرعة وحثّ جن سليمان على حمله إلى أرض غير الأرض لأنه قرأ فى عينيّ «كاردوتشا» عزمها على تسليم نفسها له حتى بدون عقد زواج، ومن ثم فقد أزمع ترك ساحة النزال والنكوس على عقبه مولياً الأدبار.. طلب من قومه فى تلك الليلة ضرورة مغادرة المكان، فلم يعصوا له - كالعادة - أمرا وعلى هذا استعدوا صبيحة اليوم التالى للرحيل بعد استردادهم للرهن الذى قدموه نظير إقامتهم بتلك القرية المشؤومة.

ولما أبصرت «كاردوتشا» أحلامها تتهاوى ورغباتها تتبخر برحيل أندريس قررت العمل على إبقائه بالقوة مادامت لم تستطع بالطرق

الودية، وهكذا استعانت بكل ما أسعفها به خيالها المريض وهدتها الحيلة إلى دس بعض حليها (خرز، دبابيس وخلخالين من الفضة) فى رحل أندريس، لم يكد الغجر يغادرون الخان حتى زعقت بأعلى صوتها متهمة إياهم بسرقة أغراضها الشخصية، وعلى صراخها تجمع رجال العدالة وجميع من بالقرية من سكان.

أمسك الغجر عن السير، وأقسموا جهد إيمانهم بالبراءة وطهارة اليد، كما أعربوا عن استعدادهم لتفتيش رحالهم وكافة متعلقات المخيم، اغتمت العجرية العجوز لخوفها من أن تظهر عملية التفتيش حاجيات بريثيوثا الخاصة وملابس أندريس وقد اجتهدت فى إخفائهما عن كافة العيون.. كانت «كاردوتشا» تنتظر متوثبة، وعندما وصلوا إلى الرحل الثانى طلبت من المفتشين السؤال عن صاحبه لأنها رأت مرتين ذلك الراقص الرشيق يتسلل خارجا من غرفتها ومن المحتمل أن يكون هو الفاعل، عندما أدرك أندريس أنها تقصده ضحك قائلا:

- أيتها الأنسة الموقرة، هذا هو رحلى وهذا حمارى، لو عثرت على ما ينقصك سأعوضك بسبعة أمثاله نقدا وسأقبل بصدر رحب العقوبة التى يوجبها القانون على اللصوص.

قلب مسئولو العدالة رحل أندريس، وما هى إلا لحظات حتى عثروا على المسروقات، ألجمت الدهشة لسان أندريس وبدا مثل تمثال من الحجارة الصماء.

- ألم تكن شكوكى فى محلها؟ - قالت كاردوتشا فى نبرة تهكم -

من كان يظن أن هذا الوجه البريء يخفى وراءه لصاً مخضرمًا!  
أنبرى العمدة - الذى كان حاضراً - فى سب أندريس وبقية الغجر  
بأقذع الشتائم وبعثهم باللصوصية وقطع الطريق، لم يكن أندريس  
قد أفاق بعد من دهشته، وظل مطرقاً يفكر دون أن يفتن إلى  
الخدعة ، تقدم ابن أخت العمدة - وهو شرطى عبوس متين البنيان -  
ليدلى بدلوه هو الآخر ، قال:

- ألا ترون ما حل بهذا الزنيم حين بانته فعلته الكريهة ومع أننا  
ضبطناه متلبساً أراهن على أنه لن يتورع عن الحلف بأغلظ الإيمان  
نافياً التهمة عن نفسه، ما خلق هؤلاء إلا للعمل على مجاديف السفن،  
أليس من الأفضل لمثل هذا الوغد الخدمة على سفن صاحب الجلالة  
بدلاً من التسكع بالرقص وممارسة هوايته فى النشل هنا وهناك، إن  
شرف الجنديّة يحتم على أن أصفعه صفقة تكومّه تحت قدمي.

قال ذلك ثم رفع - دون مقدمات - كفه الضخم وهوى به على وجه  
أندريس الذى أعادته اللطمة من شروده وجعلته يتذكر أنه «دون  
خوان» الفارس المقدام، لا ذلك الغجرى المدعو «أندريس كاباييرو» ،  
هجم حانقاً على الشرطى، وفى طرفة عين امتدت يده لتستل سيف  
غريمه من غمده وتطعنه به طعنة أسقطته على الأرض ميتاً.

حدث هرج ومرج شديداً: تكهرب العمدة (خال القتيل) ، سقطت  
پرينثوثا مغشياً عليها وأربكت باغمائها حبيبها، أخرج الناس  
أسلحتهم وطاردوا القاتل... زادت البلبلة، تعالى الصياح، ولانشغال  
أندريس بپرينثوثا أهمل الدفاع عن نفسه، وشاء حظه العاثر ألا

يكون كليمنتي حاضراً لأنه كان قد سبقهم إلى الخروج ومعه بعض الحاجيات.. تكاثر المتحمسون على أندريس المرتبك وأوقعوا به فى النهاية وقيدوه بسلسلتين غليظتين، لو لم تكن القرية واقعة فى دائرة مرسية القضائية لأشفى العمدة غليله وشنق القاتل بيديه، لكنهم لم يحمّله إلى مرسية فى اليوم نفسه بل فى اليوم التالى، وخلال تلك الفترة التى ظل فيها محجوراً بالقرية ذاق - على يد العمدة المتوثب وزبانيته وكافة السكان - شتى صنوف التعذيب والإهانات.. قبض العمدة على من طالته يده من الفجر بينما تمكن آخرون (من بينهم كليمنتي الذى خاف من افتضاح أمره لوأمسكوا به) من الفرار بجلودهم..

فى اليوم التالى، وفى حراسة العمدة ومساعديه ومتطوعين مسلحين، اتجهت إلى مدينة مرسية قافلة<sup>(٣٧)</sup> تضم المقبوض عليهم من الفجر تتوسطهم پريثوثا وأندريس الذى كان ممتطياً حماراً ومطوقاً بالأغلال والسلاسل ، خرجت المدينة عن بكرة أبيها لرؤية السجناء بعدما وصلها خبر جريمتهم ، ولم يشاهد فرد فيها جمال پريثوثا إلا ولهج بالثناء على قدرة الخالق وبيدع صنعه... دفع الفضول امرأة القاضى لرؤية الفتاة التى يسبح الناس بحمد جمالها، ومن ثم فقد طلبت من زوجها عدم الزج بها فى السجن مع الآخرين وإحضارها إلى بيته... حبسوا أندريس فى زنزانة ضيقة مظلمة تصور أنه لن يخرج منها إلا إلى مثواه الأخير فى لحد تحت الأرض ، حملوا پريثوثا وجدتها إلى امرأة القاضى التى استقبلت الفتاة بقولها:

- لديهم كل الحق فى الإشادة بهذا الجمال الرائع.  
احتضنتها زوجة القاضى وظلت تحديق فيها لفترة طويلة، ثم  
التفتت إلى جدتها وسألتها عن عمرها:  
- خمسة عشر عاماً - أجابت العجوز - قد تزيد شهرين أو تنقص  
مثلها.

- إنه عمر ابنتى كوستانثا لو كانت على قيد الحياة، أى،  
صديقاتى! لقد أثارت هذه الفتاة شجونى وجددت أحزانى - قالت  
زوجة القاضى.

أخذت بريثوثا يديها وغمرتهما بالقبلات راجية متوسلة:  
- سيدتى الفاضلة، العجوزى السجين لا ذنب له، الآخر هو الذى  
استثاره : ناداه باللص وهو ليس كذلك، صفعه على وجهه فتحركت  
نخوته ولم يتمالك نفسه، استحلفك بالله يا سيدتى أن تطلبى من  
القاضى تأجيل محاكمته وعقابه، إذا كان لجمالى شفاعة عندك لا  
تجعله يعجل بالخلاص منه لأن حياتى مرتبطة بحياته، كان سيصبح  
زوجى لولا بعض العوائق التى منعتنا حتى الآن من تتويج تعاهدنا  
بالزواج، لاشك أنك تعرفين ، يا سيدتى، معنى الحب ولوعة الفراق،  
فأنت زوجة وكنت خطيبة، ولذا ستأخذك الشفقة بى لو عرفت أننى  
أحب السجين حباً طاهراً عفيفاً.

كانت بريثوثا تقول لها هذا وهى متشبثة بيديها ، تحمق فيها  
والدموع تنساب بغزارة من مقلتيها ، ولم تكن امرأة القاضى أقل  
منها تشبثاً وتحديقاً ودموعاً، فوجئ القاضى عند دخوله عليها بهذا

المشهد الحزين الباكي وبجمال العجربة الصارخ فاعترته الدهشة،  
سأل عن سر هذه المناحة، فما كان من بريثيوثا إلا أن تركت يدي  
أمراته لتمسك بقدميه وهى تقوله له:

- الرحمة يا سيدى الرحمة ! لو مات العجربى ستقبض روحى معه  
إلى بارئها ، إنه برىء ، أنا المذنبه، وإذا لم تستطع محاكمتى بدلا منه  
فلترجئ النظر فى قضيته لعل السماء تأتى بالفرج وتمكن من  
الاهتداء إلى الوسائل الناجعة لترئبته.

تجددت دهشة القاضى من جراء كلامها الرشيد الموجه، ولو لم  
يتمالك نفسه لاعتراه الضعف وشاطرها البكاء، كانت العجربة  
العجوز مطرقة الرأس، تناوشها الأفكار ، وبعد كثير من أعمال الفكر  
والتدبر خرجت من صمتها المطبق بقولها:

- على رسلكم أيها السادة ، فلربما كان بوسعى - رغم احتمال  
خطورته على حياتى - تحويل هذا البكاء المر إلى بهجة وسعادة.

خرجت متعجلة وتركت الحاضرين مشوشين، يضربون أخماساً  
فى أسداس، لم تكف بريثيوثا عن البكاء والتوسل بإرجاء محاكمة  
أندريس، وفى نيتها إبلاغ والده بما حدث واستعجال قدومه .. عادت  
العجوز وهى تتأبط صندوقاً صغيراً وطلبت الانفراد بالقاضى  
وزوجته لاطلاعهما على سر خطير، ظن القاضى أنها تريد الكشف  
عن بعض المسروقات التى تفيد فى نظر قضية السجين، وما إن خلت  
بهما العجوز فى غرفة مستقلة حتى جثت على ركبتيها أمامهما  
وقالت:



- إذا لم يكن السر الذى أبوح به الآن يستحق إعفائى من الجرم الذى اقترفته ذات يوم فأنا على أتم الاستعداد لقبول العقوبة التى ترونها، لكن قبل هذا ، ألا يمكنكما التعرف على محتويات هذا الصندوق؟

وضعت الصندوق الخاص بپريثيوثا بين يدى القاضى ، وعندما قام بفتحه لم يجد سوى بعض الحلى الصغيرة التى تخص البنات حديثات العهد بالولادة. لم يظن إلى العلاقة بين محتوياته وبين السر الذى تتحدث عنه، نظرت إليها زوجته ولم تدرك هى الأخرى ما وراءها من أسرار، ولذا لم تعلق على ما رأته بأكثر من الآتى:

- إنها تخص طفلة صغيرة.

- أنا حقا كذلك يا سيدتى - ردت العجوز - لكن عن أية طفلة تتحدث هذه الورقة المطوية؟

تناولها القاضى بسرعة وقرأ ما يلى:

اسم الطفلة: دونيا كوستانثا دى أثبيدو إى دى مينيثيث. الأم: دونيا جيومار دى مينيثيث . الأب: دون فرناندو دى أثبيدو، فارس أخوية قلعة رياح، اختفت الطفلة من بيت أبويها ومعها صندوق حليها يوم صعود الرب، فى الثامنة صباحاً ، عام ألف وخمسمائة خمس وتسعين».

تعرفت امرأة القاضى - فور سماعها للمدون فى الورقة - على الحلى الصغيرة. رفعتها عندئذ إلى فمها وراحت تقبلها آلاف المرات، ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها، خف القاضى لنجدتها ونسى

سؤال العجربة عن ابنته، وعندما ثابت الزوجة إلى رشفها سألت:  
- أيتها المرأة الطيبة والملاك الهابط من السماء، أين صاحبة هذه  
الحلى؟

- أين ستكون يا سيدتى؟ - ردت العجربة - إنها هنا، فى بيتكم:  
العجربة الصغيرة التى انتزعت منكم الدموع هى صاحبة الحلى  
وابنتكم دون أدنى شك، لقد سرقتها من بيتكم فى مدريد فى التاريخ  
الموضح بالورقة.

حين سمعت هذه السيدة المضطربة المشوشة قفزت حافية إلى  
الصالة حيث تركت بريثيوثا فوجدتها محاطة بوصيفات البيت  
وخادماته، مازالت تبكى، اقتربت منها، ودون أن تنطق بكلمة كشفت -  
فى لهفة - عن صدرها وبحثت تحت نهدها الأيسر عن علامة صغيرة،  
على شكل شامة بيضاء كانت مولودة بها، فوجدتها فى مكانها كبيرة  
ومنبسطة بفعل مرور الزمن، قامت بعد ذلك - وباللهفة نفسها - بخلع  
الفردة اليمنى من حذائها فكشفت عن قدم من الثلج والعاج ورأت فيه  
ما كانت تبحث عنه: لحمة تصل بين الإبهام والسبابة كانوا قد  
تركوها هكذا، دون إزالة، حرصاً منهم على عدم إيلاها بجراحة فى  
تلك السن الصغيرة... من توافر كل هذا الأدلة (الشامة، اللحمة،  
الحلى الصغيرة، اعتراف العجربة، الورقة التى تشير إلى تاريخ  
سرقتها، وفوق هذا وذاك الإحساس بالفرع والنشوة عند رؤيتها)  
وقر فى قلب امرأة القاضى وعقلها أن بريثيوثا هى ابنتها دون شك،  
وهكذا قامت على الفور باحتضانها والعودة بها إلى حيث ينتظر

## القاضى والعجربة العجوز.

مشت پريثيوثا مع امرأة القاضى ذاهلة: من التفتيش الغريب الذى خضعت له، ومن تأبطها لذراعها، ومن غمرها بألاف القبلات، وصلت «دونيا جيومار» بالحمولة الرائعة الجميلة إلى زوجها وألقتها بين ذراعيه قائلة:

- استلم ابنتك «كوستانثا» إنها هى ، لا جدال، لا يخامرنى أدنى شك فى تلك الحقيقة لأننى شاهدت الإصبعين الملتصقين وشامة الصدر ، ناهيك عما تحدثنى به نفسى منذ اللحظة التى وقعت فيها عيناي عليها.

- لا أشك فى هذا - أجاب القاضى وپريثيوثا بين ذراعيه - فقد خامرنى الإحساس نفسه، لكن كيف يمكن للعديد من البراهين والأدلة القطعية الاجتماع فى وقت واحد، ألا يعتبر هذا من قبيل المعجزات ؟  
أشكل على جميع أهل الدار وطفقوا يسألون بعضهم البعض عن حقيقة ما يجرى حولهم، لكن تفسيراتهم كانت جميعها طائشة ومجافية للصواب، أكان باستطاعة أحد تصور أن تلك العجربة الباكية ما هى إلا ابنة صاحبي الدار!؟

طلب القاضى من امرأته وابنته والعجربة العجوز كتمان السر حتى يتولى هو الكشف عنه ، كما هدأ من روع العجوز وأخبرها بتغاضيه عن الضر العميم الذى ألحقته به نتيجة لسرقتها حشاشة قلبه، لأنه

وإن كان بالغاً إلا أن الفرحة بعودتها إليه قد تعدله، لكنه وبخها

على تزويجها من غجرى لص وقاتل وهى تعلم طيب منبتها وعراقه أصلها.

- أه يا سيدى - قالت پريثيوثا - ما هو بلص ولا غجرى، وإن كان قاتلا فلأن الآخر هو الذى اعتدى على شرفه ودفعه دفعاً لرد اعتباره. - كيف لا يكون غجرىاً، يا بنتى؟ - سألت «دونيا جيومار».

تصدت العجرية العجوز للإجابة وروت بإيجاز حكاية «أندريس كاباييرو» وقالت إن اسمه الحقيقى «دون خوان دى كاركامو»، ابن «دون فرانثيسكو دى كاركامو»، وأنه مثل أبيه فارس فى أخوية «سنتياجو» المقدسة، وأنها مازالت تحتفظ بملابسه الأصلية، كما أشارت إلى الاتفاق المبرم بين پريثيوثا وبين «دون خوان» بشأن فترة الاختبار التى تمتد سنتين، وعلى ضوءها يقرران الزواج من عدمه، ولم تغفل إبراز عفة الاثنين وطهارتهما وسعة ثراء «دون خوان» وكرم أصله.

أثارت القصة دهشتها مثلما أثارتها من قبل كيفية العثور على ابنتهما، أمر القاضى العجوز بإحضار ملابس «دون خوان» خرجت ثم عادت بصحبة غجرى آخر يحمل الملابس.

فى الفترة التى قضتها العجوز بالخارج لإحضار الملابس تلقت پريثيوثا من والديها أسئلة لاتحصى، كانت إجاباتها الفطنة الذكية كفيلة بأن تجعلهما يحبانها ويتعلقان بها حتى ولو لم يكتشفا أنها ابنتهما - سألها - على سبيل المثال - عن شعورها تجاه «دون خوان» فقالت إنها تقدر فيه سلوكه الرشيد وتفانيه فى خدمتها وتحوله (على

ما فيه من إهانة لشخصه الكريم) إلى غجری من أجل إرضائها،  
وبرغم كل هذا فإنها ستذعن ممتنة لإرادة والديها ولما يقرانه  
بشأنها.

- كفى يا پريثيوثا يا بنتى - قال أبوها - أريد أن تحتفظى بهذا  
الاسم تخليداً لذكرى فقدك والعتور عليك، ولن أدخر وسعاً من جهتى  
لتعويضك عما فاتك.

تنهدت پريثيوثا ، فأدرکت أمها - بحسها الأنثوى - أنها تنهيدة  
حب لدون خوان، وعندئذ قالت لزوجها:

- إذا كان «دون خوان» سيداً من السادة ويحب ابنتنا بهذا  
الشكل ، فما المانع من تزويجها له؟  
رد عليها القاضى بقوله:

- أتريدين أن نفقدها ثانية يوم عثورنا عليها؟ دعينا نستمتع بها  
لبعض الوقت، لو زوجناها الآن لن تكون لنا، بل لزوجها.

- معك الحق كله - قالت زوجته - لكن مر - على الأقل - بإخراج  
«دون خوان» ، لابد أن المسكين يعانى داخل زنزانة كريمة.

- صدقت يا أمه - قالت پريثيوثا - فلن ينزلوا لصا قاتلا، وفوق  
هذا غجريا، إلا أحفر المنازل وأبشعها.

- سأذهب لرؤيته بحجة أخذ اعترافه - قال القاضى - وإياكم  
وإفشاء مضمون هذه القصة قبل أن أذن لكم.

عانق ابنته ثم ذهب إلى السجن، دخل بمفرده زنزانة «دون خوان»  
فوجده مقيد اليدين والرجلين بالسلاسل والأصفاد والطوق الحيدى

ما زال جاثما حول رقبته... كانت الزنزانة مطبقة الظلام فأمر - حتّ  
يراه - بفتح كوة عالية كانت بها، عندما شاهده على الضوء الخاف  
المتسلل من الكوة قال له:

- كيف حال الزنزانة الطيبة؟ لو حبست فيها الغجر الموجودي  
بأسبانيا لتخلصت منهم جميعا دون جهد أو عنّت مثلما أراد «نيروز  
أن يفعل بمدينة روما ، اعلم ، أيها اللص القاتل، أننى قاضى المدينة  
وقد أتيت لأعرف منك إذا كانت إحدى الغجريات التى قدمت معكم  
هى فعلا زوجتك.

حين سمع هذا أندريس ظن أن القاضى وقع فى غرام بريثوثا،  
هذا لأن الغيرة كائن دقيق بإمكانه التسلل إلى بقية الأجساد دون  
تحطيمها ، وال طول بها دون تفتيتها ، ورغم هذا أجابه:

- لو قالت إنها زوجتى فهى صادقة، ولو قالت غير هذا فهى أيضا  
صادقة، فمن المستحيل أن يجرى الكذب على لسان بريثوثا.

- أهى صادقة إلى هذا الحد؟ - سأل القاضى - أليس هذا بكثير  
على غجرية مثلها؟ حسنا ، أيها الفتى، لقد أخبرتنى أنها زوجتك  
لكنها لم تعطك يدها، ولذا طلبت منى إتمام زواجكما بعدما أيقنت  
أنك ستموت عقابا على جريمتك ، يبدو أنها تريد أن تنعم بشرف  
الترمل من لص كبير مثلك.

- أتوسل إليك أن تلبى رغبتها ، فلو تزوجتها سأرحل سعيدا إلى  
العالم الآخر.

- أحبها كثيرا؟

- نعم - أجاب السجين - وإن كانت كلمة كثيراً لا تفى بالمعنى هنا،  
حقاً ، أيها القاضى ، إن نهايتى غدت وشيكة، لقد قتلت ذلك الشرطى  
الذى اعتدى على شرفى، ولا أنكر هيامى بتلك العجرية، ولذا سأموت  
راضياً مسروراً لو فارقت الحياة ونحن موثقون برباط الزواج المقدس  
الذى ستباركه السماء دون شك، لأن كلينا حافظ بعفة وطهارة  
واخلاص على ما سبق وتعاهدنا عليه.

- سأجعلهم - قال القاضى - يحضرونك هذه الليلة إلى بيتى  
لأزوجك، وغدا فى منتصف النهار ستكون معلقا فى حبل المشنقة ،  
وبهذا الشكل أكون قد أوفيت للعدالة حقها ونفذت - فى الوقت نفسه -  
رغبتكما .

- شكره أندريس - وعاد القاضى إلى بيته ليخبر زوجته بما فعله  
مع السجين وبأشياء أخرى ينوى إخراجها إلى حيز التنفيذ .

روت بريثيوثا لأمها - خلال الوقت الذى تغيبه القاضى - تفاصيل  
كثيرة عن حياتها السابقة، وكيف أنها ظلت تعتقد طوال تلك السنوات  
أنها عجرية وحفيدة للعجوز، وأنها رغم هذا كانت حريصة على تغيير  
الصورة الكريهة التى يخترنها الناس فى مخيلتهم عن العجر .

سألتها والدتها إذا كانت تحب فعلا «خوان دى كاركامو» أجابتها  
- خجلة، مطرقة الرأس - إن اهتمامها بتحسين وضعها الاجتماعى  
والمعيشى بالزواج من فارس حسيب نسيب مثل دون خوان جعلها  
تنظر إليه بعين الرضا، خاصة بعد التجربة التى أثبتت لها حسن  
شماله وعفته فى التعامل، ومع هذا فلم تتعارض إرادتها بأى حال -

كما سبق وأعلنت - مع إرادة والديها، وإنها ستقبل راضية ما يقرانه بشأنها.

حل المساء ، وفي حوالى العاشرة أخرجوا أندرس من السجن بعد أن نزعوا الطوق الحديدى من على رقبته، وإن كانوا قد تركوا سلسلة كبيرة تبدأ من رجليه وتلتف حول جسده بأكمله، وصل على هذه الصورة - دون أن يراه أحد سوى الذين أحضروه - إلى دار القاضى حيث أدخلوه فى هدوء وحذر إحدى الغرف ثم تركوه فيها وحيدا وانصرفوا ، دخل بعدهم بفترة وجيزة قسيس وطلب منه الاعتراف لأنه سيلقى حتفه فى اليوم التالى ، رد عليه أندريس:

- سأعترف عن طيب خاطر ، لماذا لا تزوجوننى أولا فأنا - وأأسفاه - لن أنعم مثل بقية الأزواج بليلة دخلتى.

نصحت «دونيا جيومار» زوجها بعدم التماذى فى ترويعه حتى لا يودى الفزع بحياته، عمل القاضى بمشورتها ودخل على القسيس ليطلب منه عقد قران السجن على پريثيوثا أولا ثم يتلقى اعترافه بعد ذلك، كما أوصاه بالدعاء الخالص له لأن رحمة الله واسعة وفى كثير من الأحيان تغفر بفيضها العباد فى أوقات اليأس والقنوط التى جف فيها نبع الأمل.

خرج أندريس إلى الصالة حيث ينتظر القاضى وزوجته وپريثيوثا وخادمان آخران من العاملين بالبيت... حين رأته پريثيوثا مطوقاً بالسلسلة الضخمة، شاحب الوجه وعلى عينيه آثار الدموع، وضعت يدها على قلبها وألقت بنفسها بين ذراعى أمها التى كانت واقفة إلى



جوارها، احتضنتها الأم وقالت لها:

عودى إلى رشدك يا صبية، لا تنزعجى لأن ما تريه سيتساقط عليك فى النهاية رطباً جنياً.

لم تجد العزاء والسلوى فى كلمات أمها لجهلها بمغزاها .. كانت العجربة العجوز مشوشة مضطربة، وباقى الحاضرون ينتظر على أحر من الجمر ما سيسفر عنه هذا المشهد الرهيب.

فدخل القاضى قائلاً:

نيافة الضابط القسيس، هذا العجربى وهذه العجربة هما اللذان ستتولى عقد قرانهما.

- لا يمكننى القيام بهذا العمل ما لم تستوف الإجراءات الضرورية لذلك، فأين إعلان الكنيسة برغبتهما فى الزواج؟ وأين تصريح رئيسى بعقد القران؟

- لقد فاتنى هذا - أجاب القاضى - لكنى أعدك بأن أجعل القاضى الكنسى يزودك فيما بعد بالمستندات اللازمة.

-- قبل رؤيتها لا يمكننى عمل شئ - رد القسيس الضابط - ومن ثم ليأذن لى السادة الحضور بالانصراف.

ودون إضافة كلمة أخرى، حتى لا تحدث فضيحة، خرج من الدار لا يلوى على شئ وتركهم فى حيص بيص..

- خيراً فعل أبونا - قال القاضى - ربما شاءت العناية الإلهية إطالة فترة تعذيب أندريس لأن الإعلان عدة مرات فى الكنيسة عن رغبة شخصين فى الزواج يتطلب وقتاً ليس بالقصير، وطول الوقت

يتمخض عادة عن نهاية سعيدة للأحداث المريرة، لكن ما يهمنى الآن هو معرفة أندريس على ما يلي: لو كان زواجه سيتم فى ظروف عادية دون مسلسل الرعب هذا، فهل كان سيسعد به أكثر لو كان «أندريس كاباييرو» أو «دون خوان دى كاركامو»؟

حين سمع أندريس اسمه الحقيقى رد قائلاً:

- بما أن بريثيوثا قد تجاوزت حدود الصمت وكشفت عن هويتى ، فلا مفر من الاعتراف بأننى سأكون فى كلتا الحالتين راضياً وسعيداً بقسمة السماء مادامت ستبلغنى منتهى أملى.

- لا يسعنى إزاء هذه الروح الأبية الشريفة - قال القاضى - إلا أنى أعذك يا «دون خوان دى كاركامو» بالزواج فى حينه من بريثيوثا، وأن أعلن عن قبولى بتسليمك الآن أعلى جوهرة فى حياتى، وعليك أن تقدرها حق قدرها لأننى أعطيك من خلالها «دونيا كوستانثا دى مينيثيث» ابنتى الوحيدة، فهى وإن كانت تعدلك فى الحب فإنها لا تقل عنك أصلاً ولا نسباً.

دهش أندريس لما سمع، لكن «دونيا جيومار» قصت عليه بإيجاز حكاية ضياع ابنتها والعثور عليها، فضاعفت القصة من دهشته المزوجة هذه المرة بالفرحة الغامرة .. عانق حمويه مخاطباً إياهما بوالدى وسادتى ثم قبل يد بريثيوثا وطلب - والدموع تنهمر من عينيه - موافقتها على الزواج منه.

انفرط السر ، وخرج النبأ من الدار بخروج الخدم الذين شاهدوا ما جرى، عندما عرف العمدة - خال القتيلى - أدرك أن جميع طرق

الانتقام قد سدت فى وجهه لأنه من غير المعقول التوجه إلى العدالة بطلب القصاص من صهر القاضى.

ارتدى «دون خوان» ملبسه الأصلية التى أحضرتها الغجرية، وتحول السجن والأغلال الحديدية إلى حرية وأساور ذهبية، كما تحول حزن الغجر السجناء إلى فرحة لأنهم استردوا - بكفالة - حريتهم فى اليوم التالى... تلقى خال القتل وعدا بألفى دوكدوس مقابل تنازله عن الدعوى والعفو عن «دون خوان». لم ينس الأخير فى غمرة الأحداث المتلاحقة زميله كليمنتى وأرسل فى طلبه ، لكنهم لم يعثروا له على أثر حتى جاءهم بعد أربعة خبر يفيد ركوبة من ميناء قرطاجنة سفينة من السفينتين المنطقتين صوب إيطاليا.

قال القاضى لدون خوان إن خبرا مؤكدا وصله يفيد بتعيين والده قاضيا على مرسية ، وسيكون من الأفضل انتظاره للحصول على موافقته ومباركته لعقد القران.

رد عليه «دون خوان» قائلا إنه لا يستطيع الاعتراض على ما يراه أو عصيان أوامره، لكن تباريح الهوى أضنت فؤاده وجعلته لا يقوى على الانتظار.

استخرج القاضى تصريحا من الأسقف بعمل إعلان واحد فى الكنيسة عن الزواج بدلا من الإشهارات المتعددة المتعارف عليها... ولأن القاضى كان محبوبا جدا فى المدينة فقد وعده أهلها بإقامة احتفال ضخم يوم الزفاف يتضمن الصواريخ النارية ومصارعة الثيران والعديد من الألعاب مثل لعبة التحطيب، ظلت الغجرية العجوز

فى الدار لأنها لم ترد مفارقة حفيدتها بريثيوثا.  
وصلت أخبار عقد قران العجرية الصغيرة إلى العاصمة، وعندئذ أدرك «دون فرانثيسكو دى كاركامو» أن ابنه هو العريس وأن بريثيوثا العجرية الجميلة هى العروس، غمرته الفرحة لأنه كان قد تصور ضياع ابنه لعدم ذهابه مع رفاقه إلى «فلانديس» ومن جهة أخرى فقد حمله الجمال الباهر للعروس ومكانة صهره المرموقة على الصفح عن الهفوة التى بدرت من ابنه... عجل بالرحيل لكى يرى فلذة كبده وزوجته، ولم تكد تمر عشرون يوما حتى كان فى مرسية، ويقدموه تجددت الأقراح وأقيم حفل الزفاف ، وامتدت المسامرات والحكايات، وعلى طريقتهم احتفل شعراء المدينة - التى تحفل بالعديد من المجيدين - بالحدث السعيد والفريد.

ومن بين هؤلاء نخص بالذكر «دل بوثو» (٢٨) الذى كتب قصيدة عصماء تخلد شهرة بريثيوثا أبد الدهر.

نسبنا الإشارة إلى أن الابنة الولهانة لصاحبة الخان قد أماطت اللثام عن كيدها للعجري أندريس.. واعترفت للعدالة بذنبها وهيامها الشديد الذى دفعها لاتهامه ظلما بالسرقة، لكنها لم تنل أية عقوبة على جريمتها لأن الفرحة الغامرة بالعثور على الزوجين السعيدين كانت قد طمست على شهوة الانتقام وأرخت العنان للرحمة والتسامح.

## هوامش

- (١) يقال إن «كاكو» هذا هو ابن Vulcano وهو شخصية أسطورية يضرب بها المثل فى الإجرام بشتى أنواعه: السرقة والنهب وقطع الطريق والقتل والتخريب... إلخ، وتقول الأسطورة إن زفيره كان نارا ولهبا خالصين
- (٢) «بريثوثا» Preciosa من الأسماء الأعلام التى تستخدم أيضا صفة، وتطلق فى الأسبانية على كل شىء جميل ونفيس .
- (٣) يقع فضاء Santa Bárbara فى شمال مدريد بالقرب من البوابة المعروفة بهذا الاسم فى نهاية شارع Hortaleza. وفى تلك المنطقة كان يوجد دير «سانتا باربرا الذى تأسس عام ١٦١٢ م ، وعلى أنقاض الدير والكنيسة أقيم بعد ذلك مصنع لصهر المعادن، وعندما اختفى المصنع تحولت المنطقة إلى حى سكنى.
- (٤) صرح البابا «خوليو الثانى» عام ١٥١٠ بعيد «سانتا آنا» الذى يتم الاحتفال به فى السادس والعشرين من شهر يوليو، ولم تكن «سانتا آنا» قديسة المدينة وراعتها فحسب، بل كانت كذلك بالنسبة للعجر المقيمين بالمناطق المحيطة بها.
- (٥) كنيسة «سانتا ماريا» من الكنائس القديمة جدا فى مدريد، وتقع فى نهاية شارع «المودينا» وكانت فى ذلك العصر المكان المفضل لإقامة الاحتفالات الدينية والمناسبات السياسية الهامة، ويذكر أن الإمبراطور فيليب الثانى توجه - عند دخوله مدريد فى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٥٦٩م - لأداء القداس فى هذه الكنيسة بصحبة الكاردينال «إسبينوسا» وكانت

مناسبة احتفالية ضخمة حضرها البارزون من رجال الكهنوت علاوة على الشخصيات الهامة فى الإمبراطورية .

(٦) «أرجوس» Argos شخصية أسطورية ترى فى جميع الاتجاهات، ويقال إنها كانت مزودة بمائة عين.

(٧) الفلوس (مفردها : فلس) : عملة نحاسية قديمة.

(٨) «جانيميدس» Ganimedes: أمير طروادى (من طروادة) يتفوق بجماله الفذ على سائر الكائنات البشرية .

(٩) فى النص الأصيلى (الأسبانى) توجد كلمة «محمد» (صلى الله عليه وسلم) ، وقد آثرنا فى الترجمة استبدال دار الإسلام بها، لتفادى الزج باسم خاتم المرسلين فى سياق لا يليق بمكانته السامية.

(١٠) الرومانث الذى بين أيدينا حافل بالعديد من الرموز: «فلك الزهرة» يرمز إلى الأمير «دون فيليب» (المولود بمدينة بلد الوليد الثامن من (أبريل عام ١٦٠٥) و «شمس النمسا» يقصد بها «فيليب الثالث» و«الصبح الندى» يرمز إلى الأميرة «دونيا أنا» (المولودة ببلد الوليد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٦٠١) و«مارجريتا» هى «مارجريتا النمساوية» زوجة فيليب الثالث وابنة الأرشيدوق «دون كارلوس» ، أما «جوييتر» فيقصد به «دوق ليرما»... إلخ.

(١١) من سمات اللهجة المحلية لسكان «أندلوثيا» (جنوب أسبانيا) نطق حرف «السين» «ثاء» و«الثاء» «سينا» وهذه الخاصية اللغوية متأصلة وغير مصنوعة فى أهل الجنوب، لكنها ليست كذلك عند العجر (كما يفهم من إشارة المؤلف).

(١٢) إذا جاءت كلمة بريثوثا تالية (نعنا) لكلمة حجر فإنهما يعنيان «الأحجار الكريمة» .

- (١٣) «الباسيليسكو» Basilisco : أفعوان خرافى يقتل بمجرد النظر.
- (١٤) «منثنارس» Manzanares : النهر الوحيد الذى يمر بالعاصمة مدريد، وقد وصفه المؤلف بالتواضع لقللة المياه التى تجرى به، والشعر الأسباني - لاسيما فى العصر الذهبى - حافل بالعديد من القصائد التى تسخر من النهر وتتهكم من ندرة مياهه.
- (١٥) الطواشى: العبد الخصى الذى يلزم النساء عند خروجهن من البيت، ويتولى خدمتهن بداخله.
- (١٦) المرابطى: مسكوكة عربية قديمة كانت متداولة فى عهد المرابطين خلال وجودهم بالأندلس.
- (١٧) الكشتبان: قمع الخياط .
- (١٨) الكلمة الموجودة فى النص الأسمى Garrama غرامة (وهى كلمة عربية كما نرى) ، وكانت تستخدم فى عصر المؤلف للإشارة إلى الجزية التى يدفعها المسلمون لأمرائهم المسيحيين (وسبحان مغير الأحوال!).
- (١٩) يشير الكاتب هنا إلى حروب «فلاندس» الطويلة التى جرت وقائعها بين عامى ١٥٦٧ و١٦٥٩.
- (٢٠) «دبلون» Doblón: بوقية (مسكوكة ذهبية) تحمل نقوشاً على كلا وجهيها، وكانت تسك فى عصر الملكين الكاثوليكين، وظل يسكها بعدهما فى القرن السادس عشر الميلادى كل من الإمبراطور كارلوس الأول، وفيليب الثانى.
- (٢١) جباتشو Gabacho: لقب تحقيرى للفرنسيين الذين يسكنون بعض القرى الموجودة فى جبال البرانس.
- (٢٢) «كاباييرو» Caballero، تعنى فارس، ولا يقتصر معنى الفروسية فيها على الصفة الحربية بل يمتد إلى كل ما هو جميل من الأخلاق والشمائل مثل

الرجولة والمروءة والنبيل والترفع عن الدنيا.. إلخ . ومن هنا تكمن المفارقة في خلق المؤلف لهذا اللقب على من سيكون عجريا أو الإشارة إلى أن بعض الفجر يتلقبون به.

(٢٣) «خوانيكو» تصغير للاسم العلم Juan خوان .

(٢٤) Gambon, Onez كانتا إمارتين في «بيتكايا» وظلتا لفترة طويلة منفصلتين عنها، وعندما تولى الملك إنريكي الرابع الحكم عهد بمهمة ضمهما إلى مملكته إلى «دون بدرو فرناندث دى بلاسكو» (كونتHaro) .

(٢٥) لجأت العجوز وحفيدتها (المزعومة) إلى التورية والتعمية في حديثهما حتى لا يفتضح سرهما، وقد تحقق لهما ما أراداه حسبما يتضح من التعليقات للحاضرين والتي تنم عن الجهل التام بالمغزى الحقيقي للحوار بين الفجريتتين.

(٢٦) في زمن المؤلف (وفي العصور السابقة واللاحقة أيضاً) كانت تُحصَل على بوابات المدن - خاصة الكبيرة - رسوم دخول على البضائع والأفراد، كما كان يتم في بعض الأحيان تحصيل رسم مغادرة كذلك.

(٢٧) الجدادج (جمع جدجد) : صراصير تطير في الظلام.

(٢٨) Las garruchas: التعذيب ب الجاروتشا يتمثل في تعليق الشخص من رجله مع وضع أحمال ثقيلة على ظهره وساقيه.

(٢٩) Potro: آلة تعذيب خشبية على شكل مهر.

(٣٠) ميركوريو Mercurio: هو رسول الآلهة في الأساطير الإغريقية أو الملك المكلف بحمل الأرواح إلى أعلى عليين.

(٣١) جوبيتر Júpiter: من أهم الآلهة اللاتينية ، ويتولى شأن التصرف في الظواهر المناخية مثل الضوء والأشعة والرعود والأمطار..إلخ.

(٣٢) إستخيا Estigia: في التراث الغربي نبع سام يتدفق من صخرة



- وتتوارى مياهه بسرعة تحت الأرض. ويقال إن درجة تركيز السم به تصل إلى حد صهر المعادن والخزف، وإنه فرع نهر فى الجحيم.
- (٣٣) يقع هذا المكان بين مدينتى «شلمنقة» و«نيودادريال»، وقد أطلقت عليه هذه التسمية عام ١٤٩٠م عندما عثر فيه على تمثال مهيب للعذراء Nuestra Senora ، وقد أقيمت كنيسة فى موضع اكتشاف التمثال ثم ألحق بها بعد ذلك دير للرهبان من طائفة «الدومينيكان» .
- (٣٤) يبدو أن أندريس ليس متأكدا من المسافة التى تفصله عن «بينيا دى فرنسا» فهو يقول هنا إنها حوالى عشرين فرسخاً بينما صرح قبلها أنها تزيد عن الثلاثين .
- (٣٥) تحقق النقاد والمؤرخون من شخصية «تريجيوس» هذا، وأثبتوا أنه كان يعيش فعلاً فى مدينة إشبيلية ويمارس صنعته المذكورة بها عام ١٥٩٩م.
- (٣٦) «كاردوتشا» Carducha تعنى ممشطة أو مندفة من الحديد.
- (٣٧) قافلة Cáfila من المفردات العربية التى احتفظت بها اللغة الأسبانية، وقد استخدم الكاتب الكثير من هذه المفردات فى جميع أعماله مما يشير إلى ذبوعها فى عصره، ولذا نوجه عناية الدارسين إلى أهمية هذه الظاهرة فى مؤلفات كاتب كبير مثل ثريانتس.
- (٣٨) أثبت النقاد وجود هذا الشاعر (فرانثيسكو دل بوثو) فى مدينة مرسية خلال عصر ثريانتس، إذ ذكر أحدهم أنه قام فى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٦٠٢م بإجازة أحد الأعمال المسرحية للكاتب «لوى دى بيجا».



## المترجم فى سطور

- \* على عبد الرؤوف على البمبى (أستاذ فقه اللغة الأسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر) .
- \* حاصل على الدكتوراه فى فقه اللغة الأسبانية وآدابها من جامعة SALAMANCA (أسبانيا) فى ١٩٨٧ .
- \* له العديد من الأبحاث (باللغة الأسبانية والعربية) والمؤلفات العلمية والترجمات المنشورة فى مصر وبلدان عربية أخرى .
- \* شارك فى العديد من المؤتمرات ، وناقش الكثير من الرسائل الجامعية ، وهو مُحكم فى اللجنة العلمية الدائمة المنوطة بترقية أعضاء هيئة تدريس اللغة الأسبانية وآدابها .



### للنشر في السلسلة :

- \* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء . ويفضل أن يرفق معه أسطوانة ( C.D ) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن .
- \* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
- \* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طبع الكتاب أم لم يطبع .



صدر مؤخرًا فى سلسلة  
أفاق عالمية

- 68- ليلة الكروان وقصص اخرى  
تأليف : جابرييل جارثيا ماركيث  
ترجمة وتقديم : شوقى فهيم
- 69- مدخل إلى التفكيك  
تأليف : ميشل رايان، جوناتان كلر ريتشارد  
رورتي، كريستوفر نوريس  
تحرير وترجمة : حسام نايل
- 70- السورالية.. فى عيون المرايا  
ترجمة وإعداد : أمين صالح
- 71- هل أنت شيوعى يا مستر شابلن؟  
ترجمة وتحرير : د. رمسيس عوض
- 72- مؤلفو الروايات الكاذبة (وقصص أخرى)  
اختيار وترجمة : د. أحمد هلال يس
- 73- آخر جرعة فى هذه الكأس  
ترجمة وتقديم : أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
- 74- الزهرة الأخيرة (وقصص أخرى)  
ترجمة : الحسين خضيرى
- 75- حديقة النسي  
ترجمة : كمال زاخر لطيف





شركة الأمل للطباعة والنشر  
(مورافيتلى سابقاً)

Amly

نهضة العرب

# سلسلة آفاق عالمية

فى عام ١٦١٣ شهدت الساحة الأدبية رائعة «ثريانتس» الأخرى بعد  
بون كيخوته - التى تحمل عنوان: «قصص مثالية»، وفى مقدمتها يعلن  
أنه أول من ألف قصصاً فى اللغة الإسبانية، لأن الموجود منها قبله  
كان: إما مترجماً أو نابعاً من التراث الفولكلورى أو مستقى من الأدب  
الإيطالى. «أما هذه»، يقول ثريانتس: «فتخصنى وحدى وليست مقلدة  
أو مستعارة، فهى من بنات أفكارى التى تمخض عنها قلمى وشبت  
بين ذراعى خيالى».

إعلان «ثريانتس» هذا ليس من قبيل الادعاء ولا يجافى الحقيقة،  
و«العجربة» هى القصة الأولى فى قصص «ثريانتس» المثالية التى جعلت  
أحد نقاد عصره يطلق عليه لقب: «بوكاشيو الإشباني».

وزارة الثقافة



www.gocp.gov.eg  
www.althaqafahalgadidah.com.eg  
www.qafaaalaqaleem.com.eg  
www.qatreinaha.com.eg

السيرة الجنيهان